مكتبة
رواية

جوزيه
أغوالوسا

حائزة على
جائزة
PEN Award
...
القائمة
القصيرة
لجائزة
مان بوكر
2016

نظرية عامة للنسيان

ترجمة:
سعيد بنعبد الواحد

José Eduardo Agualusa
A General Theory of Oblivion
Teoria Geral do Esquecimento

مكتبة | 715
سُر مَن قرأ

نظرية عامة للنسيان

جوزيه إدواردو أغوالوسا

نظرية عامة للنسيان/ رواية
جوزيه إدواردو أغوالوسا

ترجمة: سعيد بنعبد الواحد

لوحة الغلاف والإخراج الفني: ستوديو سيماء

الطبعة الأولى- سبتمبر 2019
978 - 9921 - 712 - 21 - 6 : ISBN
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية- دولة الكويت:
2019/1134

Author: José Eduardo Agualusa, Teoria Geral do Esquecimento (A General Theory of Oblivion)

Published ©2012 by Publicações Dom Quixote.
isbn: 9789722049603
Translated from Portuguese by:
Said Benabdelouahed

مكتبة ٩ ٧ ١٢٠٢
t.me/t_pdf

حقوق هذه الترجمة ونشرها والاقتباس باللغة العربية محفوظة للناشر

هاتف: 51088000 965+ / 99462219 965+
البريد الإلكتروني: info@daralkhan.com
تويتر:@DarAlKhan_kw
انستغرام:daralkhan_kw

© Alkhan Publishing & Distribution
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.
إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

نظرية عامة للنسيان

جوزيه إدواردو أغوالوسا

رواية

ترجمها عن اللغة البرتغالية
سعيد بنعبد الواحد

مكتبة | 715
سُر مَن قرأ

2019

الفهرس

ملاحظةٌ أوليّة 7
سماؤنا هي أرضُكم 9
تهويدةٌ من أجل موت صغير 19
جنودٌ من دون حظّ 29
جوهرُ الخوف 35
بعد النهاية 37
شجرةُ تْشي غيفارا 49
حياة جيريمياش «الجلاد» الثانية 51
مايو ، 27 57
حول فلتات العقل 59
الصحن اللاقط المتمرد 69
تجري الأيام كما لو كانت سوائل 75
هايكو 77
بناءُ الصُّدفة الدقيق 79
العمى (وعيون القلب) 89
جامعُ الاختفاءات 91
الرسالة 99
موتٌ شبح 101
حول الرّب وأنواع أخرى من الهذيان الصغير 105
تعويذة 107
يوم أنقذت لودو مدينة لْواندا 109

أشباح ، وسقطة تكاد تكون مميتة 111
موتْياتي بْلوزْ 125
حيث يتضحُ اختفاءُ (أو اختفاءان تقريباً) أو كيف ، حسب قول ماركس : كلّ ما هو صُلب يتفكّكُ في الهواء . 131
أمواتُ سابالو 145
دانييل بنْشيمول يحقّق في اختفاء لودو 157
موتْياتي بْلوزْ (2) 163
مصيرُ نهر كوبانغو الغريب 169
حيثُ ينكشفُ كيفَ ساعَد ناصر الإنجيلي السُّوبا الصغير على الفِرار من السِّجن . 177
أسرارُ لوانْدا 183
موتُ مونْتي 189
اللّقاءُ 191
حمامةٌ اسمُها «حُبّ» 195
اعترافُ جيرميياش الجلاد 205
الحادث 211
كلماتٌ أخيرة 215
كلّ شيء يبدأ في الأحلام ، بالفعل 217
تشكّرات وبيبليوغرافيا 219

ملاحظةٌ أوليّة

تُوفِّيت لودوفيكا فيرْنانْدشْ مانو في لوانْدا، داخل مصحّة ساغْرادا إسْبيرانْسا، في الساعات الأولى من شهر أكتوبر 2010. كان عمرها خمسة وثمانين عاما. قدّم لي سابالاوْ إشْتيفاوْ كابيتانْغو نسخاً من الدفاتر العشرة التي دوّنت فيها لودو يوميّاتها أثناء السنوات الأولى من الثمانية وعشرين عاماً التي ظلّت أثناءها منقطعةً عن الناس والعالم الخارجي. كما تمكّنتُ من الاطّلاع على يوميّات ما بعد تحريرها إضافةً إلى مجموعة واسعة من الصور والنصوص، والرسومات بالقلم الفحميّ التي أنجزَتها لودو على جدران شقّتها كما صورّها الفنّان التشكيلي ساكْراميِنْتو نيتو (ساكْرو). لقد ساعدَتني يوميّاتُ لودو، وقصائدُها وتأمُّلاتُها في إعادة بناء المأساة التي عاشتها. ساعدتني، أظنّ، على فهمِها. إنّني أستغلّ كثيراً من شهاداتها في الصفحات الآتية. لكن ما ستقرؤونه يندرجُ في باب التخييل. إنه مجرّد تخييل.

سماؤنا هي أرضُكم

لم تحبّ لودوفيكا قطّ أن تواجه السماء. في طفولتها، كانت تشعر بالقلق من الفضاءات المفتوحة. تشعرُ، وهي تغادر البيت، بالهشاشة والضعف، مثل سلحفاة جرّدوها من ذيْلها. في السادسة أو السابعة من عمرها، صغيرةً جداً، كانت ترفض الذهاب إلى المدرسة دون أن تحتمي بمظلة سوداء كبيرة، كيفما كان الجو. ولم يكن يثنيها عن ذلك غضبُ والديْها ولا تهكُّمُ الأطفال الآخرين، ثم تحسَّن حالها فيما بعد. إلى أن وقع ذلك الأمر الذي كانت تسميه «الحادث» وأصبحت تعدُّ ذلك الخوف البدائي نذير شؤم.

بعد موت والديْها ظلت تعيش في بيت أختها. لا تخرجُ إلا لماماً. تربح شيئاً من المال بإعطاء مراهقين مَلُولين دروسًا في اللّغة البرتغالية. بالإضافة إلى ذلك، كانت تطالع، وتطرّز، وتعزف البيانو، وتشاهد التلفاز، وتطبخ. بعد حلول الليل، تدنو من النافذة وتنظر إلى الظلام كمن يطلُّ على هُوّة سحيقة. فتُحرك أوديتي رأسها غاضبة:

ماذا بك يا لودو؟ هل تخافين أن تسقطي وسط النجوم؟

كانت أوديتي تعطي دروساً في الإنجليزية والألمانية في

الثانوية. وتحبّ أختها. تتحاشى السفر حتى لا تتركها وحدها. تقضي إجازاتها في البيت. يثني بعض الأصدقاء على إيثارها، وآخرون ينتقدون رِفْقها المُفرط. لا تتخيلُ لودو نفسَها تعيش وحدها، ويزعجها، مع ذلك، أنها أصبحت عبئاً. ترى نفسَها مع شقيقتها كأنّهما توءَمان سياميّان، يربطهما حبلُ السُّرّة. هي مشلولة، شبه ميّتة، والأخرى، أوديتي، مضطرّة لتأخذها إلى أيّ مكان. شعرت بالسعادة، وأحسّت بالرعب، حين عشقت أختُها مهندسَ مناجم اسمه أورلاندو. أرمل من دون أبناء. ذهب إلى أفييرو[1] ليحلّ مشكلة إرث معقّدة. كان أنْغوليّاً، يتحدّر من كاتيتي، ويعيش بين عاصمة أنغولا ودونْدو، مدينة صغيرة تُسيِّرها شركة استخراج الماس التي يشتغل لصالحها. بعد أسبوعين على تعارفهما مصادفةً في إحدى محلات الحلويات، طلب أورلاندو يد أوديتي للزواج. توقّع منها أن ترفض طلبه؛ لأنه كان يعرف حُججَها، فألحّ على أن تأتي لودو لتعيش معهما. في الشهر الموالي، كانوا مستقرّين في شقّة واسعة، في الطابق الأخير من عمارة فاخرة في لواندا، تسمّى «عمارةُ المَحسودين».

كانت الرحلة صعبة على لودو. خرجت من البيت دائخة، تحت تأثير المهدّئات، تئنُّ وتحتجُّ. نامت طوال الرحلة على

(1) مدينة متوسطة الحجم تقع وسط البرتغال. (المترجم)

متن الطائرة. في صباح اليوم الموالي، استيقظت على روتين يشبه روتين البارحة. كان أورلاندو يملك مكتبةً غنية تحوي آلاف العناوين، بالبرتغالية، والفرنسية، والإسبانية، والإنجليزية، والألمانية، وتضمُّ أمَّات كتب الأدب الكلاسيكي العالمي. هكذا، باتت لودو تتوفّر على مزيد من الكتب، لكنّها لا تملك كثيراً من الوقت؛ لأنها ألحّت على أن يتخلّوا عن الخادمتين والطبّاخة لتتكلّف وحدها بأشغال البيت.

ذا مساء، ظهر المهندس يحمل بحذر علبة من الورق المقوّى مدّها إلى حماته:

إنه لك يا لودفيكا كي يرافقك؛ لأنك تقضين وقتاً طويلاً وحدك.

فتحت لودوفيكا العلبة. نظرت إليها بوجه خائف، وهناك بالداخل وجدت جرواً أبيض، حديث الولادة.

كان كلباً ذكراً جيرمان شيبرد. أوضح لها أورلاندو: يكبرون بسرعة. هذا أمهقُ اللون، وهو شيء نادر. لا ينبغي أن يتعرّض كثيراً لأشعّة الشمس. ماذا ستسمينه؟

لم تتردّد لودو:

شبح.

مكتبة
t.me/t_pdf

شبح؟

نعم، إنه يشبه شبحاً. إنه أبيض بالكامل.

هزّ أورلاندو كتفَيه ذات العظام الناتئة.

حسناً. ليكن اسمه (شبح).

كان هناك سُلّم أنيقٌ وقديم من الحديد الفولاذيّ، يصعدُ على شكل لولبيّ ضيق، من الصالة إلى السطح. ومن هناك كان النظر يعانقُ جزءاً كبيراً من المدينة، والخليج، والجزيرة، وفي الخلف عقدٌ طويل من الشواطئ المستسلمة بين تخاريم الأمواج. استغلّ أورلانـدو الفضاء ليهيّئ حديقة. وعلى الأرض، ذات الآجر الخام، كان عريشٌ من البوغَنْفيلْيا يُلقي ظلاً ليْلكيّاً عطراً. كما كانت تنمو، في ركن من أركانها، شجرة رمان وعدد من أشجار الموز. فيستغرب الزوّار للأمر:

أشجار موز، يا أورلاندو؟ أحديقة هذه أم بستان؟

فيغضب المهندس. كانت أشجار الموز تذكّره ببستان الخضر والفواكه المحاط بأسوار من الطوب، حيث كان يلعب صغيراً. لو تعلّق الأمر برغبته فقط، لغرس أيضاً أشجار المانجو، وأشجار الزعرور، وعدداً كبيراً من أشجار الببّايا. حين يعود من المكتب، كان يجلس هناك، كأسُ ويسكي في متناول يده، سيجارةٌ مشتعلة

بين شفتَيه، ينظر إلى الليل وهو يغزو المدينة. يرافقه شبح. يحبُّ الكلب بدوره السطح. أمّا لودو، فترفض أن تصعد إلى هناك. في الشهور الأولى، لم تكن تجرؤ حتى على الاقتراب من النوافذ.

سماءُ أفريقيا أوسع من سمائنا، شرحت لأختها: إنها تسحقنا.

ذا صباح مُشمس من شهر أبريل، عادت أوديتي من الثانوية، لتتناول الغداء، متوترة وخائفة. لقد اندلعت الفوضى في عاصمة المُستعمَرَة. كان أورلاندو في دونْدو. وصل ليلتها. أغلق على نفسه في الغرفة رفقة زوجته. سمعتهما لودو يتحدّثان. كانت أوديتي تريد أن تغادر أنغولا في أقرب وقت ممكن:

الإرهابيون، يا حبيبي، الإرهابيون.

إرهابيون؟ لا تستعملي هذه الكلمة مرة أخرى في بيتي. لم يكن من عادة أورلاندو أن يصيح. كان يهمس بنبرة لاذعة، وشفرة صوته تنزل كسكين على حناجر محاوريه: هؤلاء الإرهابيون ناضلوا من أجل حرية بلدي. أنا أنْغولي. لن أرحل.

توالت أيام مضطربة. مظاهراتٌ، إضراباتٌ، تجمّعات. أغلقت لودو زجاج النوافذ حتّى لا تمتلئ الشقّة بقهقهات الناس في الشوارع، التي تنفجر في الهواء مثل ألعاب نارية. كان أورلاندو ابن تاجر يتحدّرُ من إقليم مينْيو البرتغالي استقرّ بكاتيتي عند بداية

القرن، وأُمّ خلاسية من لواندا، ماتت عند الوضع، فلم يعتن قطّ بعلاقاته الأسرية. أثناء تلك الأيام، ظهر أحد أبناء عمّه، فيتورينو غافياو. قضى خمسة أشهر في باريس، يشرب، يعشق، يتآمر، يكتب قصائد على مناديل من ورق، في الحانات التي يتردّد عليها منفيّون برتغاليون وأفارقة، فاكتسب بذلك هالة ثوريّ رومنسيّ. نزل عندهم مثل عاصفة، فبعثر الكتب في الرفوف، والأكواب في خزانة الأواني، وأثار أعصاب شبح. كان الجروُ يلاحقه على مسافة آمنة، ينبحُ ويَهَرُّ.

إنّ الرفاق يريدون أن يتحدّثوا معك، يا رجل! كان فيتورينو يصيح، وهو ينزل بلكمة على كتف أورلاندو: إننا نتفاوض بشأن حكومة مؤقتة. نحن بحاجة إلى أُطُر. وأنت إطار جيد.

هذا ممكن، اعترف أورلاندو: ثم إننا نملك أطراً. ما يعوزنا هو الطبشورة[1].

كان متردّداً. نعم، كان يهمّهم، يمكن للوطن أن يعول على ما راكمه من تجارب. لكنّه كان يخشى التيّارات المتطرّفة داخل الحركة. يفهم الحاجة إلى مزيد من العدالة الاجتماعية، لكنّ الشيوعيين، الذين يهدّدون بتأميم كلّ شيء، يخيفونه. نزْعُ المِلكيّةِ

(1) تعني الكلمة البرتغالية «quadro»، إضافةً إلى معنى إطار سياسي، سبورةَ القسم الدراسّي. من هنا، نفهم تعليق أورلاندو الذي ينمّ عن نوع من السخرية واللعب بالكلمات. (المترجم)

الخاصّة. طردُ البيض. تكسيرُ أسنان الطبقة البورجوازية. أمّا أورلاندو، فكان يعتزّ بابتسامته الجميلة، ولا يريد استعمال طقم أسنان. كان ابن العمّ يضحك، ويعزي المبالغة اللّغوية إلى حماسة اللحظة، يثني على الويسكي ويشرب منه المزيد. ابن عمّه ذاك، بشعره المجعّد والمفتول على طريقة جيمي هندريكس، كان يُخيفُ الشَّقيقتَين.

إنّه يتحدّث مثل أسْود! قالت أوديتي بنبرة اتهام. وإضافةً إلى هذا، تفوح منه رائحة تيس. كلّما جاء إلى هنا، أفسد البيت برائحته.

يغضب أورلاندو، ويخرج بعد أن يصفق الباب. ثم يعود لاحقاً، أكثر جفاءً وحدّة، رجلاً أشبه بشُجيْرة شائكة. يصعدُ إلى السطح، رفقة شبح، يحمل علبة سجائر وقنينة ويسكي، ويظلّ هناك. لا ينزل إلا بعد حلول الليل، يلفّه الظلام ورائحة قوية من الكحول والتبغ. يتعثّر، يصطدم بالأثاث، يرغي ويزبد ضدّ الحياة اللعينة.

كانت الطلقات النارية الأولى إشارة إلى بداية احتفالات الوداع الكبرى. يموت الشبّان في الشوارع، وهم يلوّحون بالأعلام، بينما يرقص المُعمّرون. ريتا، الجارة في الشقّة المجاورة، استبدلت لواندا بريو دي جانيرو. في الليلة الأخيرة، استدعت مئتين من أصدقائها إلى حفل عشاء استمرّ إلى الفجر.

ما لن نستطيع شُربَه نتركه لكم، قالت وهي تُري أورلاندو بيت المؤونة حيث تتراكم صناديق من قناني أحسن الخمور البرتغالية: اشربوها. المهمّ ألّا يتبقّى منها شيء يُحيي به الشيوعيون حفلاتِهم.

ثلاثة أشهر بعد ذلك، كانت العمارة شبه فارغة. وعلى العكس، لم تجد لودو أين تضع كلّ تلك القنان من الخمر، وصناديق الجعة، والمعلّبات، ولحم الخنزير، وشرائح سمك القدّ، وعدة كليوغرامات من السكر والطحين، غضافة إلى كمّيات لا تُحصى من موادّ النظافة والتطهير. كما تلقى أورلاندو من صديق يهوى جمع السيّارات الرياضية، سيّارة من نوع «شوفرولي كورفيت» وأخرى من نوع «ألفا روميو ج. ت. أ». وسلّمهُ صديقٌ آخر مفاتيح شقّته.

لم أكن محظوظاً قطّ، يشتكي أورلاندو إلى الأختَين، ومن الصعب فهمُ إن كان ساخراً أم جادًّا: الآن بعد أن بدأتُ أجمع السيّارات والشقق ظهر الشيوعيون وهم يريدون أن يأخذوا منّي كلّ شيء.

تشعل لودو المذياع فتدخلُ الثورة إلى البيت: **السلطة الشعبية هي سبب هذه الفوضى**، كان يردّد أحد المغنّيين الأكثر شعبية لحظتها. **يا أخي**، كان يغنّي آخر: **عليك أن تحبّ أخاك / ولا تَنظر إلى لون بشرته / انظُر إليه كأنغولي لا غير / مع كلّ شعب**

أنغولا متّحد / سيأتي الاستقلال. لا تنسجم بعض الألحان مع الكلمات. تبدو كأنّها سُرقت من أغانٍ تعود إلى فترة أخرى، ألحاناً راقصة حزينة مثل ضوء غروب قديم. وهي ترقب من النوافذ، شبه مختبئة وراء الستائر، ترى لودو شاحناتٍ تمرّ محمّلة بالرجال. بعضهم يرفعون أعلاماً، وبعضهم يحملون لافتات كتبت عليها عبارات من قبيل:

استقلال تام!

كفى من 500 عام من القهر الاستعماري!

نريد المستقبل!

تنتهي المطالب بعلامات تعجّب. وتختلط علامات التعجّب بالمناجل الصغيرة التي يحملها المتظاهرون. تلمع أيضاً المناجل في الأعلام واللافتات. يحمل بعض الرجال واحدة في كلّ يد. يرفعونها. يضربون الشفرات بعضها ببعض، في صياح كئيب.

ذات ليلة، رأت لودو في حُلمها أنّه تحت شوارع المدينة، تحت المنازل المحترمة وسط المدينة، تمتدُّ شبكة لا تنتهي من الأنفاق. تنزل جذورُ الأشجار حُرّة عبر القباب. يعيش آلاف الأشخاص تحت الأرض، غارقين في الوحل والظلام، يتغذّون على ما تلقيه البورجوازية الاستعمارية في مجاري الصرف الصحيّ. مشت

لودو وسط الحشد. يلوّح الرجال بالمناجل، ويضربون الشفرات بعضها مع بعض، فيتردّد صدى ضجيجها عبر الأنفاق. دنا منها أحدهم، ألصق وجهه بوجه البرتغالية، وابتسم. ثم همس في أذنها بصوت خفيض ووديع:

سماؤنا هي أرضُكم.

تهويدةٌ من أجل موت صغير

ظلّت أوديتي تلحّ على أن يغادروا أنغولا. فيُوَشْوِشُ الزوج، ردّاً عليها، بكلمات لاذعة. بإمكان الأختين معا أن ترحلا. وعلى كلّ المعمرين أن يغادروا. لم يكن يرغب فيهم أحد هنا. لقد اكتملت دورة من الزمن وبدأ عهد جديد. سواء سطعت الشمس أو جاءت العاصفة، فلا تستطيع ضوءُ المستقبل ولا العواصف الموشكة أن تنير البرتغاليين أو أن تجلدهم. ثم يزداد غضب المهندس كلّما وشوش. يستطيع أن يعدّ ساعات طوالًا ما اقْتُرِفَ من جرائم في حقّ الأفارقة، وما تمّ ارتكابه من أخطاء، وظلم، ووقاحة، حتّى تتخلّى زوجته عن مطلبها، وتغلق على نفسها في غرفة الضيوف. وكانت مفاجأة كبيرة يوم جاء إلى البيت، يومان قبل الاستقلال، وأعلن أنّه في الأسبوع الموالي سيكونان في لشبونة. فتحت أوديتي عينين واسعتين:

- لماذا؟

قعد أورلاندو في أريكة من أرائك قاعة الضيوف. نزع ربطة عنقه، وفتح أزرار قميصه، ثم بحركة غريبة عنه نزع الحذاء ووضع قدمَيه فوق طاولة القهوة:

لأنه بإمكاننا القيام بذلك. الآن يمكننا أن نرحل.

في الليلة الموالية، خرج الزوجان لحضور حفلة وداع أخرى. ظلّت لودو تنتظرهما، تقرأ، تحيك، حتّى الثانية صباحاً. ثم ذهبت لتنام قلقة. لم تَنَم جيداً. استيقظت عند الساعة السابعة، ارتدت مئزراً واتصلت بأختها. لم يجبها أحد، فأيقنت أنّ مأساة ما قد حدثت. انتظرت مدّة ساعة أخرى قبل أن تبحث عن دليل الهاتف. اتصلت أولاً بعائلة نونيش، ذانك الزوجان اللذان أقاما حفلة ليلة البارحة. أجابها أحد المستخدمين. لقد خرجت العائلة نحو المطار. حضر السيد المهندس وزوجته إلى الحفل، هذا صحيح، لكن لوقت قصير فقط. إنه لم ير قط السيد المهندس بمزاج جيد كما رآه أمس. شكرته لودو ووضعت السماعة. ثم فتحت دليل الهاتف من جديد. شطبت أوديتي بمداد أحمر أسماء الأصدقاء الذين غادروا لواندا. لم يبق منهم إلا القليل. فقط ثلاثة منهم أجابوها ولا أحد منهم كان يعرف شيئاً. واحد منهم، وهو أستاذ الرياضيات في ثانوية سالفادور كورّييا، وعدها بالاتصال هاتفياً بصديق شرطي. وسيتصل بها حالما يحصل على أيّ معلومة.

مرت ساعات. بدأ تبادل لإطلاق النار. في البداية، كانت طلقات معزولة ثم صارت طقطقة كثيفة تنبعث من عشرات الأسلحة الأوتوماتيكية. رنّ الهاتف. رجلٌ، بدا لها أنه لا يزال شاباً، يتحدّث بلكنة أهل لشبونة، من عائلة محترمة، سألها إن كان بإمكانه أن يتحدّث مع أخت الدكتورة أوديتي.

- ماذا حدث؟

- لا شيء، سيدتي، فقط نريد المال.

- المال؟!

- إنك تعرفين جيداً، يا سيدتي. أسلمينا الأحجار وأعدك بكلمة الشرف أنّنا سنتركك لحالك. لن يصيبك مكروه. لا أنت، ولا أختك. إن أردتما، يمكنكما أن تعودا إلى العاصمة في الطائرة القادمة.

ماذا فعلتم لأوديتي ولصهري؟

لقد تصرّف العجوز بطريقة غير مسؤولة. هناك من الناس من يخلط بين الغباوة والشجاعة. أنا ضابط في الجيش البرتغالي، ولا يعجبُني أن يحاول أحدهم أن يخدعني.

ماذا فعلنا في حقّك؟ ماذا فعلْتَ بأختي؟

لدينا قليل من الوقت. كلّ هذا يمكن أن ينتهي بشكل جيد أو بشكل سيِّئ.

لا أعرف ماذا تريد، أقسم لك، لا أعرف...

أتريدين أن ترَي أختك مرة أخرى؟ ابقَي هادئة في بيتك، ولا تحاولي إشعار أحد. حالما تهدأ الأوضاع شيئاً ما، فسنمرّ إلى

شقّتك بحثاً عن الأحجار. تُسلمينا الطرد، يا سيدتي، وسنحرّر الدكتورة أوديتي.

قال ذلك ووضع السمّاعة. حلّ الليل. كان رَصاصٌ مضيء يرسمُ خطوطاً في السماء. انفجارات تهزّ زجاج النوافذ. اختبأ شبح خلف إحدى الأرائك. كان يئنّ بصوت خفيض. شعرت لودو بدوخة، ورغبة في القيء. هرعت إلى الحمّام وتقيّأت في المرحاض. جلست على الأرض ترتعش. ما إن استرجعت قواها حتى توجّهت إلى مكتب أورلاندو، حيث لم تكن تدخل إلا كل خمسة أيام لتكنس الأرضية وتنفض الغبار. كان المهندس معتزّاً أيّما اعتزاز بطاولة المكتب، قطعة أثاث فاخرة وهشّة اشتراها من تاجر عاديّات برتغالي. حاولت المرأة أن تفتح الدُّرْج الأول فلم تفلح. ذهبت وجلبت مطرقة ثم كسرته بثلاث ضربات قوية. وجدت بداخله مجلّة إباحية. أبعدتها بتقزّز، ثم اكتشفت تحتها حزمة أوراق مالية من مئة دولار ومسدساً. أمسكت السلاح بيديها كلتيهما. تحسّست وزنه. تلمّسته. هذا هو ما كان الناس يقتلون به بعضهم بعضاً. آلة كثيفة، داكنة، تكاد تكون حيّة. فتّشت الشقّة. لم تجد شيئاً. أخيراً، تمدّدت على إحدى أرائك الصالة ونامت. استيقظت فزِعة. كان شبح يجرّها من تنّورتها، ويهرُّ. يهزّ، بلطف، نسيمٌ قادم من البحر الستائر الرقيقة المخرّمة. تتلألأ نجوم في الفراغ. يضخّم الصمتُ حجم الظلام. يرتفعُ ارتجافُ أصوات

من الرواق. نهضت لودو. مشت حافية حتى بلغت باب الشقّة وراقبت من المنظار. هناك في الخارج، قرب المصاعد، يتحدّث ثلاثة رجال بصوت خفيض. أشار أحدهم إليها، إلى الباب، بقبضة مطرقة:

كلب. أنا متأكّد. سمعتُ كلباً ينبح.

ماذا تقول يا مينْغيتو؟! وبّخهُ الرجل النحيف والصغير، الذي يرتدي لباساً عسكرياً مفرطاً في الكبر والاتساع: لا يوجد أيّ أحد هنا. لقد فرّ المُعمرون. هيا، اكسر هذا الباب اللعين.

تقدم مينْغيتو. تراجعت لودو. سمعت ضربة، ودون أن تفكّر ردّت عليها بضربة أخرى قوية على الخشب، تركتها لاهثة. صمتٌ. وصيحةٌ:

- مَنْ هناك؟

- ارحلوا.

ضحكات. الصوت نفسه:

بقيت واحدة هنا! كيف حصل يا أمّي، هل نسوك؟

ارحلوا، أرجوكم.

افتحي الباب، يا أمّي. نريد فقط أن نأخذ ما يخصّنا. لقد

سرقتمونا مدة خمسمئة عام. جئنا لنأخذ ما هو لنا.

معي سلاح. لا أحد يدخل.

- هدّئي من رُوعك، سيدتي. اعطنا المجوهرات، شيئاً من المال ونذهب إلى حال سبيلنا. نحن أيضاً لنا أمهات.

- لا. لن أفتح.

- حسنا. مينْغيتو، حطِّم هذا الباب.

جرت لودو نحو مكتب أورلانـدو. أمسكت المسدس، وتقدّمت، ثم صوّبت السلاح نحو الباب وضغطت على الزناد. سوف تذكر لحظة الطلقة، يوماً عن يوم، أثناء خمسة وثلاثين عاماً التي تلتها. الجلبة، واهتزاز السلاح الخفيف.

- كيف ستصبحُ حياتُها لولا تلك اللحظة؟

- آي، دمٌ يسيل. لقد قتلتِني، يا أمّاه.

- ما هذا الأمر! هل أصبت بجرح، يا صديقي؟

- هيا، اذهبوا من هنا، اذهبوا!...

طلقات في الشارع، قريباً جدّاً. طلقات تجلبُ طلقات. ما إن تُطلق رصاصة في السماء حتّى تلتحق بها أخريات. في بلد يعيش

حالة حرب، تكفي شرارة واحدة. عادمُ سيّارة به خَلل. مفرقعة. أيّ شيء. اقتربت لودو من الباب. رأت الثقب الذي فتحته الرصاصة. أسندت أذنها إلى الخشب. سمعت لهاث الجريح الأصمّ:

- ماء، أمّاه. ساعديني...

- لا أستطيع. لا أستطيع.

- من فضلك، سيّدتي. إنني أموت.

فتحت المرأة الباب، وهي ترتعش كثيراً، دون أن تترك المسدس. كان المعتدي جالساً على الأرض، مستنداً إلى الحائط. قد يظنّه المرء طفلاً، لولا لحيته السوداء الكثّة. وجهٌ صغير، يتصبّب عرقاً، وتحدق عينان واسعتان بها دون ضغينة:

- يا لَسوء الحظّ! يا لَسوء الحظّ! لن أرى الاستقلال.

- عفواً، لم أكن أقصد.

- ماء. أشعر بعطش شديد.

ألقت لودو نظرة خائفة على الرواق.

زحف الرجل نحو الداخل وهو يئنّ. وبقي ظلّه مستنداً إلى الحائط. ليلٌ ينفصل عن ليل. داست لودو ذلك الظل بقدمَيها الحافيتَين وانزلقت.

- يا إلهي!

- اسمحي لي، يا جدّة. إنني ألطّخُ بيتك.

أغلقت لودو الباب، ثم زَلَجتْهُ. توجّهت نحو المطبخ، تبحث عن ماء بارد في الثلاجة، وملأت كوباً ثم عادت إلى الصالة. شرب الرجل بنهم.

- كنتُ فعلاً بحاجة إلى كوب من الهواء المنعش.

- عليّ أن أطلب طبيباً.

- لا داعي لذلك. سوف يقتلونني على أيّ حال. غنّي لي أغنية، يا جدّة.

- كيف؟

- غنّي. غنّي لي أغنية ناعمةً نُعومةَ الوسادة.

فكّرت لودو في والدها، وهو يدندنُ لها أغاني قديمة من ريو دي جانيرو كي تنام. وضعت المسدس على الأرض، جثت على ركبتَيها، وأمسكت بين يدَيها يَدَي المعتدي الصغيرتين، ثم دنَت بفمها من أذنه، وغنّت.

غنّت وقتًا طويلًا.

ما إن أيقظ أوّلُ ضوءٍ البيتَ حتّى تشجّعت لودو، فأمسكت الميت من عنقه، دون عناء كبير، وأخذته إلى السطح. ثم ذهبت تبحث عن رفش. فتحت حفرة ضيّقة وسط كتلة من الكتل الحجرية، بين الورود الصفراء.

قبل شهور، كان أورلاندو قد بدأ بناء مسبح صغير فوق السطح. أوقفت الحرب الأشغال. ترك العمّال أكياساً من الإسمنت، والرمال، والآجر، مسندة إلى الجدران. سحبت المرأة شيئاً من تلك الموادّ نحو الأسفل. نزعت مزلاج الباب الرئيس، وخرجت. بدأت تشيد حائطاً في الرواق، وتفصل الشقّة عن باقي أجزاء العمارة. استغرقت في ذلك الصباح كلّه. استغرقت في ذلك الظهيرة كلّها. ولم تشعر بالجوع والعطش إلا عندما كان الجدار منتهياً، وبعد أن صقلت الإسمنت. جلست إلى مائدة المطبخ، سخّنت الحساء وأكلت على مهل. قدّمت بقايا دجاجة مشوية إلى الكلب.

- الآن ليس هناك سوى أنت وأنا.

جاء الكلب ولحس يديها.

جفّ الدمُ قرب الباب الرئيس، فرسم لطخة داكنة. آثار خطى كانت تخرج من هناك باتجاه المطبخ. لحسها شبح. أبعدته لودو. ذهبت وبحثت عن سطل ماء، وصابون، ومكنسة، ثم نظّفت كلّ شيء.

أخذت حمّاماً دافئاً. عندما خرجت من الحمام رنّ الهاتف. أجابت:

- لقد تعقّدت الأمور. لم نتمكّن من المرور بالأمس لنأخذ الموادّ. سوف نأتي قريباً.

وضعت لودو السماعة دون أن تجيب. رنّ الهاتف مرة أخرى. هدأ لحظة، لكن ما إن أدارت له المرأة ظهرها حتى أخذ يرنّ من جديد، وبعصبية، يطالبها بالاهتمام. جاء شبح من المطبخ. أخذ يدور في دوائر، ينبح، هائجاً عند كلّ رنّة. فجأة، قفز فوق المائدة وأسقط الآلة. كانت سقطة عنيفة. رجّت لودو العلبة السوداء. بداخلها كان شيء ما قد انفصل. ابتسمت:

- شكراً لك يا شبح. أظنّ أنّه لن يزعجنا مرة أخرى.

هناك في الخارج، وسط الليل المضطرب، كانت تنفجر الشهب والمدافع. والسيارات تزمجر بمنبهاتها. تطلّعت البرتغالية من النافذة، فرأت حشداً يتقدّم على طول الشارع. يملأ الساحات بحماسة مستعجلة وغاضبة. أغلقت على نفسها في الغرفة. تمددت فوق السرير. خبّأت وجهها في الوسادة. حاولت أن تتخيّل نفسها بعيدة جدّاً عن هناك، في أمان بيتهم القديم، هناك في أفييْرو، تتابع أفلاماً قديمة على التلفاز بينما تحتسي شاياً وتُعضْعضُ خبزاً محمّصاً. لم تتمكّن من ذلك.

جنودٌ من دون حظّ

يبذل الرّجُلان قُصارى جُهدِهما ليُخفيا توتّرهما. لهما لحيتان متناثرتان، وشعر طويل أشعث. يرتديان قميصيْن بالألوان وسروالَيْن بأقدام الفيلة، وينتعلان حذائين عسكريين. كان بينجامين، أصغرهما، يصفر وهو يقود السيارة. أما جيريمياش، **الجلاد**، فكان إلى جانبه، يعض سيجارته. مرّا قرب شاحنات مفتوحة تنقل جنوداً. كان الأطفال يلوحون إليهما، ناعسين، ويرسمون علامة النصر بأصابعهم. فيردُّ عليهم الرجلان بالطريقة نفسها:

كوبيون! زمجر جيريمياش: الشيوعيون الملعونون.

ركَنا السيارة أمام «عمارة المحسودين» وخرجا. منعهما متسولٌ من الدخول:

صباح الخير، أيها الرفيقان.

ماذا تريد، يا رجل؟! زمجر جيريمياش: أجئتَ تتسول مالاً من البيض؟ لقد انتهى ذلك العهد. في أنغولا المستقلة، في هذا الخندق الراسخ للاشتراكية في أفريقيا، لا مكان للمتسولين. المتسولون تُقطع رؤوسهم.

أبعده بلطمة مفاجئة ودخل إلى العمارة. تبعه بينجامين. طلبا المصعد وصعدا إلى الطابق الحادي عشر. وقفا مسمريْن، دهشيْن، أمام جدار حديث البناء:

اللعنة! لقد جُنّ هذا البلدُ.

هل أنت متأكد أن هذا هو المكان؟

هل أنا متأكد؟ ابتسم جيريمياش. ثم أشار إلى الباب المقابل: هناك، في الطابق الحادي عشر، حرف «ج»، كانت تسكن ريتينْيا. أحسن سيقان أنغولا وأجمل مؤخرة في البلد. لقد كُنتَ محظوظاً لأنك لم تعرف ريتينْيا. من عرفها لا يستطيع أبداً أن ينظر إلى امرأة أخرى دون أن ينتابه شعور عابر بالخيبة والمرارة. مثل سماء أفريقيا. لو أجبروني على مغادرة هذه الأرض، يا إلهي، أين سأذهب؟

أفهمك أيها القائد. ماذا نفعل الآن؟

سنبحث عن معول ونهدم هذا الجدار.

ثم دخلا إلى المصعد مرة أخرى. كان المتسول في انتظارهما، برفقة خمسة رجال مسلحين:

إنهما الرَّجُلان، أيها الرفيق مونْتي.

تقدم الرجل المدعو مونْتي. توجه إلى جيريمياش بصوت واثق وقوي، يتناقض مع ضآلة جسده:

هل تمانعُ في أن تشمر كُمّ قميصك، أيها الرفيق؟ نعم، كُمّ ساعدك الأيمن. أريد أن أرى معصمك...

ولماذا علي أن أقوم بذلك؟

لأنني أطلب منك ذلك برقّةِ عَطّار.

انفجر جيريمياش ضاحكاً. رفع كم قميصه ليكشف عن وشم: Audaces Fortuna Juvat [1].

هل كنت تريد أن ترى هذا؟

تماماً، أيها القائد. يبدو أن حظك قد انتهى. وصحيح أيضاً أن رجلينِ أبيضينِ يخرجان إلى الشارع، في هذه الأيام المضطربة، ويرتديان أحذية جنود برتغاليين، يبدو لي أمراً ينطوي على شجاعة مفرطة.

التفت نحو رجُليْن مُسلّحيْن وأمرهما بإحضار حبل وربط المرتزقيْن. فشدّا يديْهما على ظهريهما ثم دفعهما داخل سيارة تويوتا كورولا في حالة سيئة جداً. جلس أحد الرجُليْن في الأمام.

---

(1) عبارة باللغة اللاتينية، وتعني «الحظُ يبتسمُ للشجعان». (المترجم)

جلس مونْتي عند المقود. وتبعه الباقون في الخلف في سيارة جيب عسكرية. خبّأ بينجامين وجهه بين ركبتيه، دون أن يتمكن من كبْت دموعه. دفعه جيريمياش بكتفه، منزعجاً:

هدئ من روعك. إنك جندي برتغالي.

فتدخل مونْتي:

اترك هذا الطفل وشأنه. ما كان ينبغي لكم أن تحضروه. أما أنت يا سيدي، فلست سوى عاهر باع نفسه للإمبريالية الأمريكية. عليك أن تشعر بالخزي.

والكوبيون، أليسوا مرتزقة؟

الرفقاء الكوبيون لم يأتوا إلى أنغولا من أجل المال. بل من أجل قناعاتهم.

وأنا بقيتُ في أنغولا من أجل قناعاتي. أُناضل من أجل الحضارة الغربية، ضد الإمبريالية السوفياتية. أناضل من أجل بقاء البرتغال.

هراء. أنا لا أومن بهذا. أنت لا تؤمن بهذا، أمك لا تؤمن بهذا. بالمناسبة، ما الذي كنت تأتي للقيام به في شقة ريتا؟

أتعرف ريتا؟!

ريتا كوشتا رييش؟ ريتينيا؟ ساقان طويلتان. أحسن سيقان أنغولا.

ثم تحدثا بمرح عن نساء أنغولا. كان جيريمياش معجباً بنساء لواندا. لكن، أردف قائلاً، لا تضاهي أي امرأة في العالم خلاسيات بينْغيلا مذاقاً وحرارةً. حينئذ، ذكر مونْتي ريكيتا باوْليت، التي ولدت في حضن واحدة من أعرق عائلات موساميديش، وتمّ اختيارُها ملكة جمال البرتغال سنة 1971. ريكيتا، نعم، قد يعطي حياته مقابل أن يستيقظ ذات صباح على ضوء تينكَ العينين السوداوين. قطع الرجلُ الجالس قرب مونْتي مجرى الحديث:

هنا، أيّها القائد. لقد وصلنا.

كانت المدينة خلفهم. سورٌ عالٍ يقسم أرضاً خلاء. وأشجار باوْباب في الخلف ثم أفق أزرق، لا تشوبه شائبة. خرجوا من السيّارة. فكّ مونْتي وثاق المرتزقيْن. ثم استقام واقفاً:

أيها القائد جيريمياش الجلاد. أظن أنّ «الجلّاد» كنية. أنت متّهم باقتراف فظاعات لا تُعدّ ولا تُحصى. لقد عَذّبتَ وقتلتَ العشرات من الوطنيين الأنغوليين. بعضهم من رفاقنا يودّون أن يروك أمام المحكمة. أمّا أنا، فأعتقد أنه لا ينبغي أن نضيع الوقت في المحاكمات. لقد حكم عليك الشعب.

ابتسم جيريمياش:

- الشعب؟ هراء. أنا لا أومن بهذا. أنت لا تؤمن بهذا، أمّك لا تؤمن بهذا. دعنا نذهب إلى حال سبيلنا، وسأعطيك ملءَ يديك من الماس. أحجارًا رائعة. يمكنك أن تغادر هذا البلد وتبدأ حياتك من جديد في أيّ مكان آخرَ. وسيكون لك من النساء ما تريد.

شكراً. إنّني لا أنوي مغادرة هذا البلد، والمرأة الوحيدة التي أريدها توجد في بيتي. أتمنّى لك سفراً سعيداً وأن تقضيَ وقتاً ممتعاً حيث أنت ذاهب.

عاد مونْتي إلى السيّارة. دفع الجنود البرتغاليَّين إلى ناحية السور. ابتعدوا بضعة أمتار. ثم أخرج أحدهم مسدساً من حزامه، وبحركة تكاد تكون ساهية، وشبه غاضبة، وجّه السلاح وأطلق النار ثلاث مرات. ظلّ جيريمياش الجلاد ممدّداً على ظهره. رأى طيوراً تحلّق هناك في السماء العالية. ثم لاحظ كتابة بلون أحمر على حائط ملطّخ بالدم، تتخلّله آثار الرصاص:

ويستمرُّ الحدادُ.

جوهرُ الخوف

أخاف ممّا وراء النوافذ، من الهواء الذي يدخل متدفّقاً، ومن الأصوات التي يجلبها معه. أخشى الناموس، وما لا يُحصى من الحشرات التي لا أعرف كيف أسمّيها. أنا غريبة عن كلّ شيء، مثل طائر سقط في مجرى نهر. لا أفهم اللّغاتِ التي تصلني من الخارج، ويجلبها المذياع إلى داخل البيت. لا أفهم ما يقولونه، حتّى عندما يبدو أنهم يتحدّثون باللغة البرتغالية؛ لأن هذه البرتغالية التي يتكلمونها لم تعد برتغاليتي.

حتى الضوء صار غريباً عنّي.

ضوء مفرط.

بعض الألوان التي لا ينبغي أن تظهر في سماء طبيعية.

أنا أقرب إلى كلبي من الناس هناك في الخارج.

بعد النهاية

بعد النهاية تباطأ الزمن. على الأقلّ، هكذا كان حسب إدراك لودو. يوم 23 فبراير من سنة 1976 كتبت في الدفتر الأول من يومياتها:

اليوم لم يحدث أي شيء. نمتُ. وأنا نائمة حلمتُ أنني أنام. أشجار، حيوانات، كمٌّ هائل من الحيوانات والحشرات تشاطرني أحلامها. هناك كنّا جميعاً، نحلم معاً، مثل حشد، في غرفة صغيرة جدّاً، نتبادل الأفكار، والروائح واللمسات. أذكُرُني عنكبوتاً تتقدّم نحو فريسة علقت بخيوط تلك العنكبوت. شعرتُ أنّني أزهار تتفتّح مع الشمس، نسيم يحمل اللقاح. استيقظتُ فوجدتُني وحيدة. إذا كنّا ونحن نيام، نحلم أننا نائمون، فهل يمكن، حين نستيقظ، أن نجد أنفسنا في واقع أكثر صحْواً؟

ذا صباح، نهضَت وفتحَت صنبوراً فلم ينزل منه ماء. شعرَت بالخوف. فخطر على بالها أول مرة أنّها قد تبقى سنوات طويلة مسجونة في الشقّة. قامت بجرد كلّ ما يتوفّر في بيت المؤونة. لا ينبغي لها أن تنشغل بالملح. كما أنها وجدت من الطحين ما يكفي عدّة شهور، بالإضافة إلى أكياس وأكياس من الفاصوليا، وعلب من السكر، وصناديق من النبيذ والمشروبات الغازية، وعشرات

من علب السردين، والتُّونة والنقانق.

أمطرت السماء تلك الليلة. أخذت لودو إبريقاً وصعدت إلى السطح، تسحب سطولاً، وأحواضاً، وقناناً فارغة. وفي الصباح الباكر قطعت البوغانفيليا وأزهار التزيين. وضعت ملء كفّ من بزر الليمون في البقعة التي دفنت فيها المعتدي الصغير. وفي أربع بقع أخرى زرعت ذرة وفاصوليا. وفي خمس بقع أخرى غرست ما تبقّى لديها من بطاطس. كان عنقوداً كبيراً يتدلّى من إحدى أشجار الموز. قطفت بعض حبّات الموز وأخذتها إلى المطبخ. أرتها لشبح:

أترى؟ لقد غرس أورلاندو أشجار موز لتثمر ذكريات. ونحن ستساعدنا على قتل الجوع. أو بالأحرى، ستساعدني أنا على قتل الجوع، أظنّ أنّك لا تحبّ الموز.

في اليوم الموالي، عاد الماء إلى الصنابير. ومنذئذ، صار يغيب بشكل متكرّر، شأنه شأن التيّار الكهربائي، إلى أن اختفى نهائياً. في الأسابيع الأولى، كان يزعجها انقطاع التيار أكثر ممّا يزعجها انقطاع الماء. اشتاقت إلى المذياع. كانت تحبّ الاستماع إلى نشرة الأخبار الدولية على البي بي سي وعلى أمواج الإذاعة البرتغالية. تستمعُ إلى المحطّات الإذاعية الأنغولية، ولو أنه كان يغضبها ما تذيعه من خطابات ضد الاستعمار، والاستعمار الجديد والقوى

الرجعية. كان المذياع آلة رائعة، بعلبته الخشبية، المصنوعة وفق أسلوب «آرت ديكو» ومفاتيحه العاجية. تديرُ لودو الأزرار بحثاً عن الأصوات، فتصلها جمل بالفرنسية، والإنجليزية، أو أي لغة أخرى غامضة من اللغات الإفريقية:

... Israeli commandos rescue airliner hostages et Entebe ...

... Mao Tse Tung est mort ...

... Combattants de l'indépendance aujourd'hui victorieuse ...

... Nzambe azali bolingo mpe atonda na boboto ...

بالإضافة إلى ذلك، كان هناك مشغل أسطوانات. كان أورلاندو يهوى جمع أسطوانات الأغاني الفرنسية من فئة 33 لفّة. أغاني جاك بْريل، شارل أزنافور، سيرج ريجياني، جورج براسينس، وليو فيري. كانت البرتغالية تستمع إلى بْريل بينما البحرُ يبتلع الضوء. تنام المدينة وهي تنسى الأسماء[1]. كانت قطعة نسيج من الشمس لا تزال تحترق. وشيئاً فشيئاً، كان الليل يحلّ والزمن يمتدّ دون وجهة. كان الجسد منهكاً والليل أكثر فأكثر زرقة. التعب يكسر ظهرها. تحسب نفسها ملكة، وتعتقد

(1) La ville s'endormait/et j'en oublie le nom/sur le fleuve en amont/un coin de ciel brûlait/ .et j'en oublie le nom, etc. Jacques Brel em La ville s'endormait (الكاتب)

وضع الكاتب هذه الإشارة باللغة الفرنسية، ومعناها:

المدينة تنام/وأنا أنسى اسمها/عند عالية النهر/ يحترق ركنٌ من السماء/ وأنسى اسمها، ...إلخ ... جاك بْريل في «المدينة تنامُ». (المترجم)

أن أحدهم، في مكان ما، في أيّ ركن من العالم، ينتظرها. تنام المدينة والطيور كأنها أمواج، والأمواج كأنها طيور، والنساء مثل النساء، وهي غير واثقة من أنّ المرأة هي مستقبل الرجل[1].

ذات ظهيرة، استيقظت على جلبة أصوات عالية. نهضت مفزوعة، تتخيل أنهم سيكتسحون بيتها. كانت قاعة الضيوف تطلّ على شقّة ريتا كوشْتا رييش. وضعت أذنها على الحائط. امرأتان، رجل، وعدة أطفال. كان صوت الرجل واضحاً، مخملياً، وجميلاً جداً. يتحدثون فيما بينهم ليس بتلك اللغات الموسيقية والملغزة التي يحملها إليها المذياع أحياناً. تنفلتُ كلمة أو أخرى من المجموع وتقفز مثل كرة ملوّنة، تذهب وتأتي إلى داخل مخّها:

بولينْغو. بيسو. ماتونْدي.

انتعشت عمارة «المحسودين» مع قدوم سكّان جدد. أشخاص جاؤوا من مدن الصفيح، قرويون وصلوا من فورهم إلى المدينة، أنغوليون عائدون من البلد المجاور زائير، ومواطنون زائيريون حقيقيون. لم يكن أيّ أحد منهم مُعتاداً على السكن في العمارات والشقق. ذا فجر، باكراً جدّاً، أطلّت لودو من نافذة الغرفة فوجدت امرأة تتبوّل في شرفة الطابق العاشر، شقّة «أ». وفي شرفة الطابق

(1) جملةُ «المرأة هي مستقبل الرجل» هي، في الحقيقة، بيت من قصيدة معروفة للشاعر الفرنسي لويس أراغون، ويؤدّيها المغنّي الفرنسيّ جان فيرا. (المترجم)

العاشر، شقّة «د»، كانت خمس دجاجات تشاهد طلوع الشمس. كانت الجهة الخلفية للبناية تطلّ على فناء واسع كان، قبل بضعة أشهر، يُستخدم لركن السيارات. بنايات عالية، على الجانب وفي الجهة الأمامية، تغلق الفضاء. نباتاتٌ هائجةٌ تغزو كلّ هذا الامتداد. ماءٌ ينبع من أيّ لُجّة، في الوسط، ويجري حرّاً طليقاً حتى يموت وسط الأزبال والطين، قرب جدران العمارات. قديماً، كانت تمتدّ هناك بحيرة كسلانة. كان أورلاندو يحبّ أن يتذكّر سنوات الثلاثينيات، حين كان يأتي، وهو طفل، ليلعب مع أصدقائه وسط الأعشاب العالية. كانوا يجدون عظام تماسيح وأفراس بحر. وجماجم أسود.

شهدت لودو انبعاث البحيرة. بل إنها عاينت أيضا عودة أفراس النهر (فرس نهر واحد، حتى نكون موضوعيين). حدث ذلك بعد عدّة سنوات. وسنعود إلى ذلك لاحقاً. خلال الأشهر التي تلت الاستقلال، تقاسمت المرأة والكلب التّونة والسردين، النقانق والأسجاق. بعد نفاذ المعلّبات، انتقلا لتناول حساء الفاصوليا والرّز. في تلك الفترة، كانت تتوالى أيام كاملة من دون تيّار كهربائي. بدأت لودو تشعل ناراً هادئة في المطبخ. في البداية، أحرقت العلب، والأوراق غير المفيدة، وأغصان البوغانفيليا اليابسة. ثم الأثاث غير المفيد. وهي تسحب عوارض سرير الزوجين، اكتشفت تحت الفراش كيساً جلدياً. فتحته،

ودون دهشة، رأت عشرات الحبّات الصغيرة تتدحرج فوق الأرضية الخشبية. بعد أن أحْرقَت الأسرَّة والكراسي بدأت تقتلع ألواح الأرضية الخشبية. كان الخشب الكثيف والثقيل يحترق على مهل، ويعطي ناراً جميلة. في البداية، كانت تستعمل أعواد الثقاب. ولمّا نفدت الأعواد صارت تستخدم عدسة مكبّرة اعتاد أورلاندو على استعمالها في دراسة مجموعة طوابعه القادمة من وراء البحار. تنتظر حتّى تغزو الشمس بأشعّتها أرضية المطبخ. وبالطبع، لم تكن تستطيع أن تطبخ إلا في الأيام المشمسة.

ثم جاء الجوع. أثناء أسابيع طويلة كأنها شهور، كانت لودو بالكاد تأكل. تغذي شبح على حساء القمح. فتمتزج النُّهُر بالليالي. تستيقظ فتجد الكلب يرقبها بقلق شرس. تنام فتشعر بنَفَسه الحارق. ذهبت إلى المطبخ وبحثت عن سكين. سكين بأطول شفرة مشحوذة، ثم ربطته في حزامها، مثل سيف. كما أنها كانت تنحني بدورها على نوم الحيوان. وقرّبت المدية من عنقه عدة مرات.

يحلّ الليل، يأتي الصباح، ويستمرّ الفراغ نفسه، دون بداية ولا نهاية. في لحظة ما، غير محدّدة، سمعَت صوتاً صاخباً قادماً من السطح. صعدَت بسرعة، فوجدت شبحًا يلتهم حمامة. تقدّمت، وهي عازمة على أن تنتزع منه قطعة. غرز الكلب قوائمه في الأرض

وكشّر أمامها عن أسنانه. كان دمٌ ثخين، ليلي، لا تزال عالقة به بقايا ريش ولحم، يغطّي خطمه. تراجعتِ المرأة إلى الوراء. فخطر عليها، حينئذٍ، أن تُحضّر مجموعة من الفخاخ المتواضعة جدّاً. صناديق موجّهة نحو الأسفل، في انحناء غير ثابت، وتستند إلى غصن صغير. وخيط يشدّ الغصن الصغير. وفي ظلّ الصناديق، حَجَران أو ثلاثة أحجار من الماس. انتظرت أكثر من ساعتين، مقرفصة خلف حوض، حتى جاءت حمامة وحطّت فوق السطح. تقدّم الطائر بخطًى سكرانة، متردّدة صغيرة. تراجع إلى الوراء. رفرف بجناحَيه، ابتعد، واختفى في السماء المضيئة. ثم عاد بسرعة. قام، هذه المرة، بدورة حول الفخّ، فنقر الخيط بحذر، ثم اجتذبه بريقُ الأحجار فتقدّم نحو ظلّ الصندوق. سحبت لودو الخيط. في تلك الظهيرة، اقتنصت حمامتين أخريين. طبختهما واستعادت قواها. وفي الشهور الموالية، قبضت على المزيد من الحمام.

لم تمطر منذ مدة طويلة. سقت لودو أماكن الزرع بما تراكم من ماء في المسبح. وفي الأخير، تمزّق ستارُ السحب المنخفضة، التي يسمّونها «كاسيمبو» في لوانْدا، وعاد الماء لينزل من جديد. فنمت الذرة وأزهرت نباتات الفاصوليا وأثمرت سنوفا. امتلأت شجرة الرمّان بفواكه حمراء. في تلك الفترة، بدأت تندرُ طيور الحمام في سماء المدينة. كانت آخر حمامة تسقط في الشراك

تحملُ حلْقة معلّقة في رجلها اليمنى. وجدت لودو أسطوانة صغيرة مشدودة إلى الحلقة. فتحتها وأخرجت منها ورقة ملفوفة كأنّها ورقة يانصيب. قرأت العبارة المكتوبة بمداد ليلكي، وبخطّ صغير جداً وثابت:

غداً. الساعة السادسة، في المكان المعتاد. كوني حَذِرة جدّاً. أحبّك.

لفَّتِ الورقةَ من جديد ثم وضعتها مرة أخرى في الأسطوانة الصغيرة. تردّدت. كان الجوع ينخر معدتها. ثم إنّ الحمامة ابتلعت حجراً أو حجرَين. بقيت أحجار قليلة، وبعضها كبيرة جدّاً لتستخدمها طُعماً. من جهة أخرى، كانت الورقة تثير فضولَها. فشعرت، فجأة، أنها قوية. كان مصير زوجين، هناك، بين يدَيها، يخفق من الرعب الخالص. بيدٍ حازمة، أمسكت بهذا المصير المُجنّح، ثم أطلقته ليعانق السماء الواسعة. كتبت في يومياتها:

أفكّرُ في المرأة التي تنتظر الحمامة. إنها لا تثق بالبريد- أو أنه لم يعد هناك بريد؟ إنها لا تثق بالهاتف- أو أنّ الهواتف لم تعد تشتغل؟ إنّها لا تثق بالناس، هذا أكيد. الإنسانية لم تشتغل جيداً قطّ. أراها تمسك بالحمامة، دون أن تعلم أنّني، قبلها، كنتُ أشدّها وهي ترتعش بين يديّ. المرأة تريد أن تهرب. لا أدري ممّا تريد أن تهرب. أمن هذا البلد الذي ينهار، من زواج خانق، من مستقبل

يشدّ قدمَيها مثل حذاء ليس بحذائها؟ فكّرتُ أن أضيف إلى الورقة ملحوظة تقول: «اقتل حامل هذه الرسالة». أجل، إن قتلت الحمامة فستجد حجرة ماس. هكذا، ستقرأ الورقة قبل أن تعيد الحمامة إلى البرج. عند الساعة السادسة صباحاً ستذهب لتلتقي برجل أتخيّله فارعاً، له حركات خفيفة وقلب يَقِظ. حزن عابر يلفّه وهو يستعدُّ للهروب. الهروبُ سيجعل منه خائناً للوطن. سيهيم على وجهه عبر العالم، متعلّقاً بحبّ امرأة لكنّه لن يستطيع أبداً أن ينام قبل أن يحمل يده اليمنى إلى جنب صدره الأيسر. وستنتبه المرأة لحركته.

- هل يؤلمك شيء ما؟

سيهز الرجل رأسه نافياً. لا شيء. لا شيء يؤلمه.

كيف له أن يشرح أن الطفولة المفقودة هي ما يؤلمه؟

وهي تطلّ من نافذة غرفتها، كانت تستطيع أن ترى، في صباحات يوم السبت الطويلة، إحدى الجارات تهرسُ الذرّة، في شرفة الطابق العاشر شقة «أ». ثم تراها تمزج العصيدة بعد ذلك. تحضر وتشوي السمك أو أفخاذ الدجاج الغليظة، أحياناً أخرى. فيمتلئ الجو بدخان دسم، عطر، يفتح الشهية. كان أورلاندو يحب المطبخ الأنغولي. أما لودو، فكانت دائماً ترفض أن تحضر

أطباق الزنوج. وندمت كثيراً على ذلك. في تلك الأيام، كانت تشتهي فقط أن تأكل شواء. بدأت تراقب الدجاجات التي تسكن في الشرفة وهي تنقب، عند الفجر، أولى حبات الشمس. المدينة نائمة. انحنت من النافذة وأنزلت حبلاً ينتهي بأُنشوطة في طرفه حتى بلغ شرفة الشقة «أ» في الطابق العاشر. بعد خمسة عشر دقيقة نجحت في ربط عنق ديك ضخم أسود. سحبته بقوة ثم رفعته بسرعة. وأمام دهشتها، كان الحيوان ما يزال حياً (وإن كان بالكاد حياً) عندما وضعته فوق أرضية الغرفة. أخرجت السكين من حزامها، وكانت على وشك أن تذبحه عندما خطر لها وحي مفاجئ. سيكون لديها ما يكفي من الذرة خلال الأشهر القادمة، علاوة على الفاصوليا والموز. بفضل ديك ودجاجة يمكنها أن تبدأ في تربية الدواجن. وقد يكون أمراً جيداً أن تأكل بيضاً طازجاً كل أسبوع. عادت وأنزلت الحبل فنجحت هذا المرة في ربط دجاجة من رجلها. تخبطت التعيسة وهي تصدر صياحاً فظيعاً، تنثر زغباً وريشاً، وتثير غباراً. لحظة بعد ذلك، استيقظت العمارة على صيحات الجارة:

لصوص! لصوص!

وبعد أن تبين أنه يستحيل أن يتسلق أحدهم الجدران الملساء ليصل إلى الشرفة ويسرق الدجاج، تحولت الاتهامات إلى عويل

موسوم بالرعب:

هذا سحر... سحر...

مكتبة
t.me/t_pdf

تلاه يقين:

إنها كْياندا... إنها كْياندا...

سمعت لودو أورلاندو مرة يتحدث عن كْياندا. كان صهرها يحاول أن يشرح الفرق بين الكْياندات وجنيّات البحر.

الكْياندا كيانٌ، وطاقةٌ قادرة على الخير والشر. تعبر عن نفسها من خلال أضواء ذات ألوان متعددة تبرز من الماء، ومن أمواج البحر وغضب الرياح. يقدسها الصيادون. عندما كنتُ طفلاً ألعب قرب البحيرة، كنتُ دائماً أجد قرابين. أحياناً تختطف الكْياندا أحد المتنزهين. ثم يظهر الناس من جديد بعد عدة أيام، بعيداً جداً، قرب بحيرات أخرى أو أنهار، أو في أي شاطئ من الشواطئ. كان ذلك يحدث كثيراً. بعد مرور بعض الوقت، أصبحت الكْياندا تتمثل تحت صفات جنّية البحر. تحولت إلى جنّية بحر، لكنها حافظت على قواها الأصلية.

بهذه الطريقة، وبفضل سرقة فظة وضربة حظة، بدأت لودو تربية الدواجن فوق السطح، وساهمت، في الوقت ذاته، في ترسيخ إيمان أهل لواندا بوجود الكْياندات وسلطتهن.

شجرةُ تْشي غيفارا

في فناء البيت، حيث برزت بركة ماء، هناك شجرة ضخمة. اكتشفتُ، وأنا أطالع في المكتبة كتاباً حول نباتات أنغولا أن الأمر يتعلق بموليمْبا (نوع من أشجار التين). في أنغولا، يعدونها شجرة ملكيّة، أو شجرة الكلمة، لأن السّوبا (الملوك) وماكوتاتهم (جواسيسهم) دأبوا على الاجتماع تحت ظلها لتداول أمور القبيلة. فروعُها العُليا تكاد تلمس نوافذ غرفتي.

أحياناً، أرى قرداً يتنزه بين الفروع، هناك في الخلف، وسط الظلال والطيور. لا بد أنه كان في ملك أحدهم، وربما هرب، أو أن صاحبه تخلى عنه. أتعاطف معه. إنه مثلي، جسمٌ غريب عن هذه المدينة.

جسم غريب.

الأطفال يرمونه بالحجارة، والنساء يطاردنه بالعصي. يصحن في وجهه ويشتمنه.

أعطيتُه اسماً: تْشي غيفارا، لأن له نظرة ساخرة بعض الشيء ومتمردة. له عجرفة ملك فقد مملكته وتاجه.

ذات مرة، وجدتُه فوق السطح يأكل الموز. لا أدري كيف

يتمكن من الصعود. ربما يقفز من غصن إلى غصن من شجرة الموليمْبا ليبلغ نافذة من تلك النوافذ، ومن هناك يقفز إلى الدرابزين. إنه لا يزعجني. هناك ما يكفي من الموز والرمان لنا معا -على الأقل لحد الساعة.

يعجبني أن أفتح ثمار الرمان، وأُقلّب بين أصابعي توهج أضوائها. بل تعجبني كلمة رمان، وما تنطوي عليه من تلألؤ الصباح.

حياة جيريمياش «الجلاد» الثانية

نستطيع جميعاً أن نعيش عدة حيوات خلال حياة واحدة، وعدة أشكال من التخلي، على وجه الاحتمال. وربما يكون هذا هو الأمر الأكثر اعتياداً. لكن، قليلون هم من لديهم إمكانية لباس جلد آخر. هذا ما حدث تقريباً لجيريمياش الجلاد. استيقظ بعد عملية إعدام لم تنفذ بعناية، في سرير قصير جداً بالنسبة لقامته التي تبلغ متراً وخمسة وثمانين سنتيميتراً، وضيق لدرجة أنه لو فكّ ذراعيه قد تتدليان معاً في كل جانب من السرير، وتلمس أصابعه الأرض الإسمنتية. كان يشعر بآلام حادة في الرأس، والعنق والصدر، ويعاني من صعوبة كبيرة في التنفس. حين فتح عينيه، رأى سقفاً واطئاً، صقيلاً ومتشققاً. وكانت وَزغَة صغيرة، معلقة فوقه، تحدق فيه بفضول. كان الفجر ينزل، متموجاً وعطراً، عبر نافذة صغيرة في الجدار المقابل، قرب السقف.

لقد متُّ، فكر جيريمياش. لقد متُّ وتلك الوَزَغة هي الربّ.

لنفترض أن الوَزَغة هي الربّ، فإنه قد يتردد في المصير الذي يخصه به. وهذا التردد كان يبدو لجيريمياش أكثر غرابة من أن يجد نفسه وجهاً لوجه أمام الرب وأن يتخذ هذا الأخير شكل زاحف. كان جيريمياش يعرف منذ مدة طويلة أنه منذور ليحترق

إلى الأبد في نار جهنم، لأنه قَتَل وعَذَّب. في البداية، قام بذلك من باب الواجب وتنفيذ الأوامر، لكنه، بعد ذلك، أصبح يحب ذلك ويستلذّه. ولا يشعر بالابتهاج، والتحقق الكامل إلا عندما يجري ليلاً وهو يلاحق رجالاً آخرين.

قرِّرْ، قال جيريمياش للوَزَغة. أو بالأحرى، حاولَ أن يقول، لأن ما خرج من فمه كان بالكاد فوضى صماء من الأصوات. حاولَ ثانية، فتكررت القرقرة الغامضة كما في كابوس.

لا تحاول أن تتكلم. ثم إنك لن تتكلّم مرة أخرى.

ظن جيريمياش، للحظات، أن الربّ يحكم عليه بالصمت الأبدي. بعد ذلك، حملق بعينيه يميناً فرأى امرأة سمينة جداً تتكئ إلى الباب. يداها، ذات الأصابع الدقيقة والهشة، كانتا ترقصان أمامها وهي تتكلم:

أمس، ورد خبر موتك على صفحات الجرائد. نشروا صورة قديمة شيئاً ما، فكدت لا أتعرفك. يقولون إنك كنت شيطاناً. لقد متَّ، وبُعثت مرة أخرى، وأمامك الآن فرصة جديدة. انتهزها.

كانت مادالينا تشتغل في مستشفى ماريّا بيبا منذ خمس سنوات. قبل ذلك كانت راهبة. عاينت إحدى جاراتها إعدام المرتزقين، من بعيد، ثم أخطرتها بالأمر. فانتقلت الممرضة وحدها في السيارة

إلى مكان الإعدام. كان أحد الرجال ما يزال حياً. اخترقت رصاصةٌ صدره واتخذت مساراً خارقاً ومثالياً، فلم تصب أي عضو من أعضائه الحيوية. ثم دخلت رصاصة أخرى من فمه، فكسرت اثنين من قواطعه العليا، ثم ثقبت حنجرته، بعد ذلك.

لا أفهم ما حدث. هل حاولتَ أن تقبض على الرصاصة بأسنانك؟ ضحكت وهي تحرك جسمها بالكامل، فبدا كأن الضوء يضحك معها: ردّ فعل جيد، يا رجل. لم تكن فكرة سيئة. لو أن الرصاصة لم تصطدم بأسنانك، لكان مسارُها مختلفاً. كنت ستموت أو تصبح مشلولاً. ارتأيتُ أنه من الأحسن ألا آخذك إلى المستشفى. قد يعتنون بك ولكنهم قد يعدمونك من جديد ما إن تتعافى. لذا، صبراً، لأنني عالجتك بنفسي بفضل ما أتوفر عليه من وسائل قليلة. بقي لي أن أُخرجكَ من لواندا. لا أعرف كم من الوقت أستطيع أن أخبئك. لو وجدك الرفاق، فقد يعدمونني أنا أيضاً. حالما يكون ذلك ممكناً سنسافر نحو الجنوب.

خبّأتْهُ لمدة خمسة أشهر تقريباً. وعبر المذياع، كان جيريمياش يتابع التقدم الصعب للجيوش الحكومية، التي يساندها الكوبيون، ضد التحالف المرتجل وغير المستقر بين **الاتحاد الوطني للاستقلال التام لأنغولا، والجبهة الوطنية لتحرير أنغولا**، وجيش جنوب إفريقيا والمرتزقة البرتغاليين، والإنجليز، والأمريكيين.

كان جيريمياش يرقص على الشاطئ في كاشكايش، رفقة امرأة ذات شعر أشقر رمادي، ولم يشارك في الحرب قط، لم يقتل قط، ولم يعذب أحداً في حياته، عندما رجّته مادالينا:

هيا، أيها القائد! لنذهب اليوم وإلا ضاعت الفرصة إلى الأبد.

نهض المُرتزق من السرير بصعوبة. كان المطر يطقطق في الظلام، ويخنق الضجيج القليل لحركة السير في تلك الساعة. سافرا في شاحنة صغيرة، من نوع سيتروين بمحرك من حصانين، ذات هيكل أصفر بال جداً، نصف متآكل من الصدأ، لكن محركها في حالة جيدة. كان جيريمياش ممدداً في الخلف، مختبئاً بين علب من الكتب.

إن الكتب تبعث على الاحترام، شرحت له الممرضة. لو حملتُ صناديق ممتلئة بالجعة، سيقوم الجنود بتفتيش السيارة تفتيشاً شاملاً. ثم إنني سأصل إلى موساميديش دون أي قنينة.

بانت نجاعة الخطة. في كل نقطة من نقط التفتيش التي مرّا بها، كان الجنود يقفون باستقامة ويؤدون التحية حين يرون الكتب، ثم يعتذرون كثيراً لمادالينا، ويتركونها تتابع الطريق. ثم دخلا إلى موساميديش ذات صباح لا هواء فيه. كان جيريمياش يطل من ثقب صغير فُتح في هيكل السيارة الصدئ، فرأى المدينة الصغيرة تدور

حول نفسها، بطيئة ودائخة، كأنها سكران يسير في جنازة. قبل عدة أشهر، مر من هناك جنود من جنوب أفريقيا، في اتجاه لواندا، وسحقوا بسهولة فيلقاً مشكلاً من جنود الريادة والموكابيين[1].

ركنت مادالينا السيارة أمام بناية صلبة زرقاء. ترجّلت، وتركت جيريمياش يحترق بداخلها. كان المرتزقُ يتصبب عرقاً، ويتنفس بصعوبة كبيرة. ففضل أن يخرج، مخاطراً بأن يقبضوا عليه على أن يموت مختنقاً. لم يتمكن من إبعاد العلب، فبدأ يوجه ركلات لهيكل السيارة. هرع إليه رجل عجوز:

من هناك؟

فسمع حينئذ صوت مادالينا العذب.

إنني أحمل جدياً صغيراً إلى فيري.

جدي صغير إلى فيري؟! آه! آه! آه! جدي صغير إلى فيري!

ما إن تحركت السيارة حتى دخل شيء من الهواء العليل، فهدأ جيريمياش. سارا لأكثر من ساعة، بين ارتجاج وآخر، في طرقات سرية، عبر مناظر بدت لجيريمياش كأنها تشكلت بكاملها من ريح قوية، وحجارة، وغبار، وأسلاك شائكة. وأخيراً، توقفا. أصواتٌ

(1) مجموعة عرقية من الرعاة الرّحل من جنوب أنغولا. (المترجم)

متعالية أحاطت بالسيارة. فُتح باب السيارة الخلفي وسحب أحدهم العلب. ثم برزت عشرات الوجوه الفضولية. نساءٌ صبغن أجسادهن بالأحمر. بعضهن ناضجات. بعضهن مراهقات، بنهود منتصبة وحلمات منتفخة. شبانٌ فارعون، غاية في الأناقة، على قمم رؤوسهم خصلات شعر.

لقد ولد والدي المتوفى في الصحراء. وهنا دفن. هؤلاء الناس يكنون له وفاء كبيراً، شرحت له ماداليا. سوف يستقبلونك ويخبّئونكَ كل الوقت الضروري.

جلس المرتزق على الأرض تحت ظل شجرة موتياتي، وعدّل كتفيه كما لو كان ملكاً يمشي عارياً في موكب. تحلق حوله جماعة من الأطفال، وأخذوا يلمسونه، ويجرونه من شعره. ويضحكون عالياً. كان يحيرهم صمتُ الرجل الفظ، ونظرته القصية، وشبحُ ماضٍ كانوا يحدسون أنه عنيف ومضطرب. ثم ودعته ماداليا بحركة خفيفة من رأسها:

انتظر هنا. سيأتون للبحث عنك. عندما يهدأ كل شيء يمكنك أن تجتاز الحدود نحو جنوب غرب أفريقيا. أظن أنه سيكون لديك أصدقاء جيدون من بين المهاجرين الإيطاليين.

مرت سنوات. عقود. ولم يعبر جيريمياش الحدود قط.

مايو، 27.

هذا الصباح كان تْشي غيفارا هائجاً جداً. يقفز من غصن إلى غصن ويصيح.

بعد ذلك، وعبر نافذة الصالة، رأيتُ رجلاً يركض. شخصٌ فارع الطول، نحيف للغاية، وخفيف الحركة بشكل لا يصدق. يلاحقُه ثلاثة جنود على بعد مسافة قصيرة. ومن كل الزوايا كان يبرز أشخاص عاديون، متدفقين، ثم ينضمون إلى الجنود. في ثوان معدودة، كان حشد من الناس يتعقب الهارب. رأيتُه يصطدم بطفل مرّ أمامه على متن دراجة هوائية، ثم تدحرج وسط الغبار. كاد الحشد أن يلحق به، وهم على بعد ذراع واحدة منه، عندما ركب الرجل الدراجة الهوائية، واستأنف الهروب. في نفس اللحظة، تشكلت مجموعة أخرى، على بعد مئة متر، وراحوا يمطرونه بالحجارة. دلف التعيس إلى زقاق ضيق. لو أنه استطاع أن يرى من أعلى، كما أفعلُ أنا، لما أقدم على ذلك: إنها طريق مسدودة. حين فطن لخطئه، رمى الدراجة وحاول أن يقفز فوق السور.

أصابته حجرة في رقبته فسقط.

لحق به الرعاع، وانقضوا على جسمه النحيف يشبعونه ركلاً. رفع أحد الجنود مسدساً وأطلق طلقة نارية في الهواء ليفسح

الطريق. ساعد الرجلَ لينهض، وهو ما يزال يوجه المسدس نحو الحشد. كان الجنديان الآخران يصيحان بالأوامر، محاولين تهدئة النفوس. تمكنا، في النهاية، من أن يجعلا الحشد يتراجع إلى الخلف، وسحبا السجين حتى بلغا شاحنة صغيرة، ثم ألقياه بداخلها وانطلقا.

ليس لدي تيار كهربائي منذ أكثر من أسبوع. لذا، لا أستمع إلى الإذاعة ولا أستطيع أن أعرف ما يحدث.

استيقظت على طلقات نارية. رأيتُ، فيما بعد، عبر نافذة الصالة، الرجل النحيف جداً وهو يركض. ظَلّ شبح مضطرباً اليوم بكاملِه، يدور حول خوفه الخاص، يعض أصابع قوائمه. سمعتُ صياحاً في الشقة المجاورة. بعد ذلك، صمْت. لم يغمض لي جفن. عند الساعة الرابعة صباحاً، صعدتُ إلى السطح. كان الليل، مثل بئر، يبتلع النجوم.

لحظتها، رأيتُ شاحنة مكشوفة تحمل جثثاً.

لم يكن مونْتي يحب الاستنطاقات. وحتى هذا اليوم، ما زال يتحاشى الحديث عن الموضوع. بل إنه يتحاشى أيضاً الحديث عن سنوات الستينيات، عندما كان يُسمح، بدعوى الحفاظ على الثورة، باللجوء إلى بعض التجاوزات، حسب تلك التورية التي كان يحبها رجال الشرطة. اعترف لبعض أصدقائه أنه تعلم الكثير عن الطبيعة البشرية وهو يستنطق الانقساميين، وبعض الشباب المحسوبين على اليسار المتطرف، خلال تلك السنوات الفظيعة التي تلت الاستقلال. إن الأشخاص الذين عاشوا طفولة سعيدة، أكّد، عادة ما يكون من الصعب تحطيمهم.

ربما كان يفكر في بيكينو سوبا، أي السُّوبا الصغير.

إن السوبا الصغير، واسمه الأصلي أرنالدو كروش، لا يحب أن يتحدث عن تلك الفترة التي قضاها وراء القضبان. أصبح يتيماً في سن مبكرة، فرعته جدتُه من جهة والده، دولسينيا العجوز، التي كانت تمتهن صناعة الحلوى، فلم ينقصه أي شيء قط. استكمل دراسته الثانوية، وعندما كان الجميع ينتظر منه أن يلتحق بالكلية وينال شهادته الدراسية، وقع في ورطة سياسية ودخل إلى السجن. كان قد قضى أربعة أشهر في كامبو دي ساو نيكولاو، على بعد مئة

وبعض الكيلومترات من موساميديش، حين اندلعت ثورة القرنفل في البرتغال[1]. ثم ظهر من جديد في لواندا مثل بطل. كانت العجوز دولسينيا تظن أن حفيدها سوف يُعين وزيراً، بيد أن السوبا الصغير كان يملك من الحماس أكثر مما يملك من الموهبة في التعاطي مع دسائس السياسة. وبعد مرور بضعة أشهر على الاستقلال، حين كان طالباً في كلية الحقوق، سُجن مرة أخرى. فلم تتحمل الجدة هذا الحزن. ماتت على إثر أزمة قلبية بعد بضعة أيام.

تمكن السوبا الصغير من الفرار من السجن، مختبئاً داخل تابوت، وهذا حدث مضحك يستحق سرداً أكثر تفصيلاً لاحقاً. بعد الخروج من السجن صار يعيش في السرّيّة. لكنه، بدل أن يلتجئ إلى بيت مُظلم، أو حتى داخل دولاب، في بيت عمة عجوز، مثل ما فعل بعض رفاقه، اختار وضعاً مخالفاً. إن ما يراهُ الجميع يصبح غير مرئي، كان يقول متفلسفاً. هكذا، صار يمشي في الشوارع، يرتدي أسمالاً، وشعره طويل يتدلى ضفائر شعثاء يغطيه الوحل والقطران. وحتى يختفي بشكل أفضل، وينجو من حملات الجنود الذين يجوبون المدينة ليل نهار يجمعون الأبرياء، كان يتظاهر بالجنون. إن المرء لا ينجح في أن يبدو مجنوناً، ولا

(1) اندلعت ثورة القرنفل في البرتغال يوم 25 أبريل 1974، حين امتنع الجيش عن قمع المتظاهرين وساند الثوّار، فوضع المتظاهرون ورودَ قرنفل في فوّهات البنادق. شكّلت هذه الثورة نهاية النظام الدكتاتوري الذي حكم البرتغال منذ سنة 1933. (المترجم)

يستطيع أن يجعل الآخرين يصدقون ذلك، إلا إذا أصبح مجنوناً نوعاً ما خلال هذا المسلسل.

تصور أنك نصف نائم، كان السوبا الصغير يقول: يقوم نصفك بالمراقبة، ويقوم النصف الآخر بالهذيان. النصف الذي يهذي هو الذي يبدو للعموم.

وهو على هذا الحال من شبه التخفي الاجتماعي وشبه الجنون وجلاءِ الفكر، يجول مثل مسافر متسلل، لمحَ السوبا الصغير الحمامة:

كانت أياماً من الجوع. أكاد لا أقف على رجليّ، تحملُني أدنى هبّة نسيم. صنعتُ مهمازاً من غصن شجرة وقطعة مطاط، ثم أخذت أحاول أن أقتنص فأر حقول، هناك في كاتامبور، حين جاءت حمامة ونزلت، مضيئة، ينير بياضُها كل شيء من حولها. قلتُ مع نفسي إنه ملاك. بحثتُ عن حجر، صوّبتُ المهماز نحو الحمامة وأطلقت الضربة. أصبتُها من أول طلقة. ماتت قبل أن تلمس الأرض. بعد ذلك، انتبهتُ إلى الأسطوانة البلاستيكية المشدودة إلى حلْقة. فتحتُها، وأخرجت ورقة صغيرة، ثم قرأتُ:

غداً. الساعة السادسة، في المكان المعتاد. كوني حذرة جداً. أحبك.

وأنا أفرغُ أحشاء الحمامة لأشويها وجدت أحجار الماس.

ولم يفهم السوبا الصغير ما وقع بعد ذلك:

أمام عجزي عن الفهم، اعتقدتُ أن الربّ هو من وهبني تلك الأحجار. بل ظننتُ أن الربّ هو من كتب تلك الرسالة إلي. كان مكاني المعتاد أمام مكتبة «ليلو». في اليوم التالي، على الساعة السادسة، كنتُ هناك أنتظر أن يظهر الربُّ.

ولمّا كانت دروب الربّ ملتوية، فقد تجلى من خلال امرأة بالغة السمنة، ذات وجه ناعم، مصقول، تعلوه تعابير افتتان أبدي. ترجّلت المرأة من شاحنة سيتروين قديمة ذات حصانين، ثم تقدمت باتجاه السوبا الصغير، الذي ظل يرقبها نصف مختبئ وراء حاوية قمامة.

آه، أيها الفتى الجميل! صاحت مادالينا: أنا بحاجة لمساعدتك.

اقترب منها السوبا الصغير مفزوعاً. قالت المرأة إنها دأبت على مشاهدته. كان يزعجها أن ترى رجلاً في حالة جيدة، جيدة فعلاً، ويقضي يومه مستلقياً على الأرض في الشارع، يتظاهر بأنه مجنون. فنهض السجين السابق، عاجزاً عن كتمان غيظه:

إنني مجنون جنوناً فظيعاً!

ليس بما يكفي، قاطعته الممرضة: إن مجنوناً حقيقياً قد يحاول أن يظهر أكثر احترازاً بعض الشيء.

كانت مادالينا قد ورثت قطعة أرض صغيرة قرب فْيانا، حيث كانت تنتج الفواكه والخضراوات، التي يصعب العثور عليها في العاصمة، وتبحث عن أحد يمكنه أن يقوم بحراستها. قبل السوبا الصغير القيام بهذه المهمة. ليس لأسباب بديهية، بل لأنه كان يتضوّر جوعاً وفي البستان بإمكانه أن يأكل كل يوم. وعلاوة على ذلك، سيكون بمنأى عن الجنود، والشرطة، وحيوانات مفترسة أخرى. قَبِلَ العرضَ، وهو يظن أنها إرادة الربّ.

بعد خمسة أشهر، أكل خلالها بشكل جيد ونام كما ينبغي، استرجع كل جلاء فكره. لكن، في حالته، للأسف، تبيّنَ أن جلاء الفكر يتنافى مع الحس السليم. ربما كان من الأنسب له أن يستمر مجنوناً لمدة خمس أو ست سنوات أخرى. ما إن جلا فكرُه، حتى تملكّه القلق. كان خراب البلاد يوجع قلبه، كما لو كان عضواً يسقيه الدّمُ. وأكثر ما كان يؤلمه مصيرُ الرفاق الذين تركهم وراء القضبان. فأعاد، شيئاً فشيئاً، ربط علاقاته السابقة. ورفقة لاعبِ كرة قدم شاب، ماسْييل لوكامبا، تعرف عليه في كامبو دي ساو نيكولاو، وضع خطة بارعة تتوخى افتداء مجموعة من السجناء وتنظيم هروبهم إلى البرتغال على متن قارب صيد. لم يُحدّث

أحداً عن أحجار الماس قط. كان ينوي بيع الأحجار لدفع جزء من ثمن العملية. لم يكن يعرف لمن يبيعها، ولم يمهلوه وقتاً للتفكير في الأمر. ذات ظهيرة من يوم الأحد، وبينما كان يستريح، مستلقياً فوق حصير، ظهر شخصان فجأة وأخذاه أسيراً. وحزن كثيراً لمعرفة أن مادالينا قد ألقي عليها القبض أيضاً.

استنطقهُ مونْتي. كان يريد إثباث مشاركة الممرضة في المؤامرة. فوعد بتحريرهما معاً، إن قام الشاب بالكشف عن المكان الذي يختبئ فيه المرتزق البرتغالي الذي ربما تكون مادالينا قد أسعفته. كان بوسع السوبا الصغير أن يقول الحقيقة، أي أنه لم يسمع قط عن المرتزق، لكنه وجد أن أي كلمة يتبادلها مع الشرطي يمكن أن تكون مرادفاً للاعتراف بشرعيته، فاكتفى بالبصق على الأرض. فخلف ذلك العناد ندوباً في جسده.

خلال كل فترة السجن، ظل يحتفظ بالأحجار. ولم يشك الحراس، ولا باقي السجناء مرة أن ذلك الشاب المتواضع، المنشغل بالآخرين على الدوام، كان يخبئ ثروة صغيرة. في صباح يوم 27 مايو من سنة 1977، استيقظ على دوي انفجار قوي. طلقات نارية. فتح له شخص مجهول باب الزنزانة وصاح إنه، إن أراد، يمكنه أن يخرج. لقد استولى مجموعة من المتمردين على السجن. عبر الشاب الجلبة بهدوء شبح، وهو يشعر أن انعدام

وجوده كان أكثر حدة مما كان عليه وهو يتسكع في المدينة متنكراً في هيئة شخص مجنون. وفي الفناء، جالسةً عند ظل شجرة ياسمين هندي، التقى شاعرة جد محترمة، تعد مرجعاً تاريخياً للحركة الوطنية، التي، كما حدث له، تم القبض عليها أياماً قليلة بعد الاستقلال بتهمة مساندة تيار من المثقفين المنتقدين لقيادة الحزب. سأل السوبا الصغير عن مادالينا. لقد أطلقوا سراحها قبل عدة أسابيع. لم تتمكن الشرطة من تقديم أي دليل ضدها. إنها امرأة رائعة! أردفت الشاعرةُ، ثم نصحته بألا يغادر السجن. في رأيها، سوف يتم إخماد التمرد بسرعة وسيقبضون على الهاربين، ثم سيعذبونهم ويعدمونهم: قريباً سيكون هناك حمّام دم.

وافقها الرأي. ضمها إليه في عناق طويل، ثم خرج في ضوء الشوارع المفرط. فكر في البحث عن مادالينا. كان يريد أن يعتذر إليها بأحسن طريقة. يعلم، مع ذلك، أن الأمر قد يجلب له مزيداً من المشاكل. قد تشرع الشرطة في البحث عنه في بيت مادالينا. سار هائماً على وجهه عبر المدينة دائخاً، فبقي تارة يتبع، من بعيد، جموع المتظاهرين، وتارة يرافق الحركات المؤيدة للرئيس. يمشي من جهة إلى أخرى، تائهاً أكثر فأكثر، إلى أن تعرّفه أحد رجال الشرطة. بدأ الرجل يلاحقه ويصيح، انقسامي! انقسامي! وما هي إلا ثوان حتى احتشد جمعٌ ليقتنصه. كان طول قامة السوبا الصغير متراً وثمانين سنتيمتراً، وساقين طويلتين. لقد كان عداء

في فترة المراهقة. لكن الشهور التي قضاها في زنزانة ضيقة جردتْهُ من النّفَس. استطاع أن يتبعد عن ملاحقيه في الخمسمائة متر الأولى، حتى ظن أنه سيخلفهم وراءه. لكن الجلبة استقطبت مزيداً من الناس لسوء الحظ، فشعر بصدره ينفجر. كان العرق ينزل فوق عينيه ويحجب الرؤية. فجأة، برزت أمامه دراجة هوائية. لم يتمكن من تجنبها، فسقط فوقها. نهض، أمسكها، وعاد ليبتعد عن الحشد. استدار يميناً. طريق مسدودة. رمى الدراجة، وحاول أن يقفز فوق الجدار. أصابه حجر في رأسه، فشعر بمذاق دم، وشيء من الدوخة. في اللحظ الموالية، كان داخل سيارة، مكبل اليدين، وثمةَ جندي من كل جانب، والجميع يصيحون.

سوف تموت أيها الانقسامي الخائن! سمع سائق السيارة يصرخ: تلقينا أوامر بقتلكم جميعاً. لكن، قبل ذلك، سوف أنتزع أظافرك، واحداً واحداً، حتى تعترف بكل ما لديك. أريد أسماء الانقساميين.

لم ينتزع أي ظفر من أظافره. بَعَجَتْهم شاحنةٌ في ملتقى الطرق الموالي، وألقت السيارة فوق الرصيف. انفتح الباب في الجهة المقابلة للصدمة، فوجد السوبا الصغير نفسه خارج السيارة برفقة أحد الجنود. نهض بصعوبة، ينفض عن نفسه دمه ودم الآخرين، وقطعاً من الزجاج. لم يجد وقتاً حتى ليفهم ما حدث. جاء رجل

قوي البنية، تعلو محياه ابتسامة يبدو أنها تلمع بأربعة وستين سنّا، فدنا منه ووضع على ظهره معطفاً يغطي الأصفاد وأخذه بعيداً من هناك. بعد خمسَ عشرة دقيقة، كانا يدخلان عمارة أنيقة، مع أنها متهالكة نوعاً ما. صعدا أحد عشر طابقاً مشياً على الأقدام، والسوبا الصغير يعرج كثيراً، لأن ساقه اليسرى كانت شبه منكسرة.

المصاعد لا تشتغل، قال ذلك الرجل ذو الابتسامة المشرقة معتذراً: البدوِيُّون يلقون القمامة في فتحة المصعد. هناك قمامة تصل إلى هناك في الأعلى.

دعاه ليدخل. على جدار الغرفة، المصبوغة بلون وردي مزعج، كانت تبرز لوحة زيتية، تصور بطريقة ساذجة صاحب البيت السعيد. كانت امرأتان تجلسان على الأرض، أمام مذياع يشتغل بالبطاريات. واحدة منهما، وهي شابة جداً، ترضع طفلاً. لم تعرهما أي واحدة اهتماماً. سحب الرجل ذو الابتسامة المشرقة كرسياً. وأشار إلى السوبا الصغير أن يقعد. أخرج من جيبه مشبك ورق وبَسَطه. انحنى على الأصداف، ثم أدخل الحديد في الفتحة، وعدّ حتى ثلاثة، ثم فتحها. صاح شيئاً ما بلغة اللينْغالا. نهضت المرأة الأكثر سناً دون أن تنبس ببنت شفة ثم اختفت داخل الشقة. عادت بعد بضع دقائق تحمل قنينتين من جعة الكوكا. كان صوتٌ غاضب يزعق في المذياع:

يجب العثور عليهم، يجب تكبيل أياديهم وإعدامهم!

فهزَّ الرجلُ ذو الابتسامة المشرقة رأسه: لأجل هذا كنا نريد الحصول على الاستقلال. ليس ليقتل الأنغوليون بعضهم بعضاً مثلا كلاب مسعورة. تنهّد: الآن علينا أن نعالج جراحك. بعد ذلك، يجب أن تخلد للراحة. نتوفر على غرفة فائضة. ستبقى هنا، حتى تنتهي هذه الزوبعة.

يمكن أن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً، قبل أن تهدأ الزوبعة.

سوف تهدأ، أيها الرفيق. الشرُّ أيضاً يحتاج إلى راحة.

الصحن اللاقط المتمرد

خلال الشهور الأولى من عزلتها، كانت لودو لا تستغني إلا لماماً عن حماية الحوض حين تذهب إلى السطح. بعد ذلك، بدأت تستعمل علبة كرتون طويلة، وضعت فيها ثُقبيْن، عند مستوى العينين لتستطيع أن ترى، وثُقبيْن آخرين على الجانب عند الأسفل لتحرر يديها. وبهذه العُدّة، يمكنها أن تشتغل في الأحواض، تغرس، وتقطف، وتقطع الأعشاب الضارة. ومن حين لآخر، كانت تنحني من السطح لتدرس بحقد المدينة الغارقة. من يستطيع أن يرى العمارة، انطلاقاً من عمارة ذات علو مشابه، يمكنه أن يرى علبة كرتون تتحرك، تنحني ثم تختفي.

كانت سُحُب تُطوِّقُ المدينة كأنها ميدوسات.

السحب تُذكِّر لودو بالميدوسات.

إن الناس لا يرون في السحب أشكالها، لأن السحب لا شكل لها، أو يرون فيها أي شكل لأن شكلها يتغير في كل لحظة وحين. يرون فيها ما ترنو قلوبهم إلى رؤيته.

ألا تُعجبكم كلمة قلب؟

اختاروا كلمة أخرى: روح، لا وعي، خيال. ما تجدونه أحسن

بالنسبة إليكم. لن تكون أي كلمة هي المناسبة.

كانت لودو تتأمل السحب وترى فيها ميدوسات.

لقد اعتادت على أن تتحدث وحدها، تردد نفس الكلمات لساعات متتالية: تغريد. زقزقة. تحليق. جناح. خفقان أجنحة. تغريد. زقزقة. تحليق. جناح. خفقان أجنحة. تغريد. زقزقة. تحليق. جناح. خفقان أجنحة. تغريد. زقزقة. تحليق. جناح. خفقان أجنحة. تغريد. زقزقة. تحليق. جناح. خفقان أجنحة. كلمات حلوة المذاق، تذوب مثل الشوكولاتة في حلق الفم وتحمل إلى ذاكرتها صوراً سعيدة. كانت تظن أنه حين تنطق بها، وتذكرها، قد تعود الطيور إلى سماء لوانْدا. منذ سنوات لم تر حماماً ولا نوارس، بل ولا حتى أي طائر صغير تاه عن سربه. كان الليل يجلبُ الوطاويط. لكن تحليق الوطاويط لا علاقة له بتحليق الطيور. فالوطاويط، مثل الميدوسات، كائنات من دون جوهر. نرى وطواطاً يخترق الظل فلا نفكر فيه بوصفه شيئاً من لحم ودم، وعظام ملموسة، لها انفعال وأحاسيس. إنها أشكال هاربة، أشباح سريعة بين الأنقاض، تكون هناك ثم تختفي. كانت لودو تكره الوطاويط. كانت الكلاب أكثر ندرة من الحمام، والقطط أكثر ندرة من الكلاب. كانت القطط هي أول ما اختفى. قاومت الكلاب في شوارع المدينة لبضع سنوات. رهط من سلالات

الكلاب. كلاب سلوقية ضامرة، كلاب حراسة موبوءة، كلاب دلْماسية مرحة، كلاب سَبْنَلِيّة متوترة. بعد ذلك، ولمدة سنتين أو ثلاث سنوات أخرى، ذلك الخليط المؤسف وغير المحتمل من كل هذه السلالات النبيلة.

تنهدت لودو. جلست قبالة النافذة. ومن هناك كانت بالكاد ترى السماء. سحب واطئة، داكنة، وبقايا زُرقة هزمها السواد تقريباً. تذكرت تْشي غيفارا. تعودت على رؤيته، وهو ينزلق عبر الجدران، ويجري في الفناءات والأسطح، يبحث عن ملجأ بين أعلى الأغصان في شجرة الموليمْبا الضخمة. تريحُها رؤيتُه. كانا كائنين قريبيْن، كلاهما خطأ، جسمان غريبان في جسد المدينة المُتهلل. كان بعض الناس يرمون القرد بالحجارة. وبعضهم يرشقونه بفواكه سامة. يتفاداها القرد. يشتَمُّ الفاكهة ثم يبتعد وتكشيرة اشمئزاز تعلو وجهه. وبتغيير موضعها قليلاً، كان بإمكان لودو أن تتأمل الصحون اللاقطة. عشرات، مئات، آلاف الصحون اللاقطة كانت تغطي أسطح العمارات مثل الفطر. منذ مدة طويلة وهي تراها موجهة نحو الشمال. كلها كانت موجهة نحو الشمال، باستثناء صحن لاقط واحد هو الصحن اللاقط المتمرد. خطأ آخر. اعتادت أن تقول إنها لن تموت ما دام هذا الصحن اللاقط يدير ظهره لرفاقه. ولن تموت ما دام تْشي غيفارا حياً. لكن، منذ أسبوعين لم تر القرد، وفي ذلك الفجر، حين ألقت نظرة على

الأسطح، انتبهت إلى أن الصحن اللاقط كان موجهاً نحو الشمال، مثل باقي الصحون اللاقطة. فانتشر على زجاج النوافذ ظلام كثيف وهادر. ثم، فجأة، أضاء بريق عظيم كل شيء، فرأت المرأة ظلها الخاص يندفع فوق الجدار. بعد مرور ثانية، دوّى الرعدُ. أغمضت عينيها. سيكون أمراً جيداً لو أنها ماتت الآن، هكذا، في هذه اللحظة من الجلاء، بينما هناك في الخارج كانت السماء ترقص، منتصرة وحرة. وقد تمضي عقود قبل أن يجدها أحد ما. فكرت في أفييرو فأدركت أنها لم تعد تشعر أنها برتغالية. إنها لا تنتمي لأي مكان. هناك حيث ولدت، كان الجو بارداً. فرأت مرة أخرى الشوارع الضيقة، والناس يمشون، برؤوس منحنية ضد الريح والضّجر. لم يكن ينتظرها أحد.

قبل أن تفتح عينيها، عرفت أن العاصفة قد ابتعدت، وانجلت السماء من السحب. كان شعاع من الشمس يدفئ وجهها. سمعت أنيناً، شكوى واهنة قادمة من الفناء. كان شبح ممدداً عند رجليها، فنهض بقفزة واحدة، قطع الشقة جارياً حتى وصل إلى الصالة، ثم صعد السلم الحلزوني متعثراً واختفى. فانطلقت لودو وراءه. حاصر الكلبُ القردَ قرب أشجار الموز، وأخذ يهرّ بانفعال كبير، ورأسه إلى أسفل. أمسكته لودو من الطوق بحزم، وهي تسحبه نحوها. قاوم الجيرمان شيبرد. تظاهر بأنه يريد أن يعضها. ضربته المرأة على خطمه بيدها اليسرى، مرة، ومرتين. في النهاية،

استسلم شبح. تركها تسحبه. ربطتْهُ في المطبخ، أغلقت الباب، وعادت إلى السطح. كان تْشي غيفارا ما يزال هناك، يرقبها بعينين دهشتين بشكل واضح. لم تر قط في أي إنسان نظرة بكل تلك الحدة من الإنسانية. في رجل القرد اليمنى كان هناك جرح غائر، أملس، يبدو أنه قد انفتح قبل لحظات من ضربة مدية ضخمة. كان الدم يمتزج بماء المطر.

قشرت لودو حبة موز جلبتها من المطبخ، ومدّت ذراعها. مطط القرد خطمه. هزّ رأسه في حركة يمكن أن تكون حركة ألم أو احتراز. نادت عليه المرأة بصوت عذب:

تعال، تعال، أيها الصغير. تعال، كي أعتني بك.

تقدم الحيوان، يجرجر رجله، ويبكي بحزن. أطلقت لودو حبة الموز وأمسكت بعنق القرد. وبيدها اليسرى استلت السكين من حزامها وغرستها في جسده النحيف. أطلق تْشي غيفارا صيحة، حرّر نفسه، والشفرة منغرسة في بطنه، ثم أدرك الجدار بقفزتين كبيرتين. ظل هناك، مستنداً إلى الحائط، ينوح وينزف دماً. جلست المرأة على الأرض، منهكة، وهي تبكي بدورها. وظلا كذلك معاً لوقت طويل، ينظران إلى بعضهما، إلى أن بدأت تمطر من جديد. حينئذ، نهضت لودو، اقتربت من القرد، أخرجت السكين وقطعت عنق الحيوان.

في صباح اليوم الموالي، وبينما هي تُملّح اللحم، انتبهت لودو إلى أن الصحن اللاقط كان من جديد موجهاً نحو الجنوب.

ذلك الصحن، وثلاثة صحون أخرى.

تجري الأيام كما لو كانت سوائل

تجري الأيام كما لو كانت سوائل. لم أعد أملك دفاتر لأكتب فيها. ولم أعد أملك أقلاماً. أكتبُ على الجدران، بقطع من الفحم، أشعاراً مقتضبة.

أقتصد في الأكل، في الماء، في النار وفي النُّعوت.

أفكّرُ في أورلاندو. كرهته في البداية. بعد ذلك، بدأت أقدره. ربما كان غاوياً من الدرجة الأولى. رجل وامرأتان تحت سقف واحد: التقاء خطير.

هايكو

أنا محارٌ أفكر

هنا مع لَآلئي

شظايا في الأعماق

بناءُ الصُّدفة الدقيق

كان الرجل ذو الابتسامة المشرقة يُدعى بْيانفونو أمْبروزْيز فورْتوناتو. لكن القليل من الناس كانوا يعرفونه بهذا الاسم. في نهاية الستينيات لحّن أغنية بوليرو تحملُ عنوان «بَّابِّي بولينْغو»، وقد حصدت تلك الأغنية التي أداها فرانْسوا لْوامبو بْوانْزو ماكيادي، فرانكو العظيم، نجاحاً فورياً، وكانت تسمع ليلاً ونهاراً على أمواج إذاعات كينشاسا، وحصل عازف القيثارة الشاب على لقب سيلازمه طوال حياته. في سن العشرين، وبعد ما تعرض لهُ من مضايقات على يد نظام السيد جوزيف ديزيري موبوتو، المعروف بموبوتو سي سيكو نكوكو نغيبندو وا زا بانغا، ذهب بَّابِّي بولينْغو إلى المنفى في باريس. اشتغل، في البداية، بواباً في أحد النوادي الليلية، وبعد ذلك عازف قيثارة في سيرك. وفي فرنسا أعاد اكتشاف بلاد أجداده وهو يحتك بالجالية الأنغولية القليلة الأفراد. هكذا، وما إن حصلت أنغولا على استقلالها حتى جمع حقائبه وغادر نحو لواندا. كان يؤدي في حفلات الزفاف وحفلات خاصة أخرى يتردد عليها الأنغوليون العائدون من الزائير، وزائيريون يحنّون إلى بلدهم. كان يكسب قوت يومه بالعمل مهندس صوت في الإذاعة الوطنية. كان يؤدي واجبه صباح يوم 27 مايو، عندما اقتحم المتمردون البناية. وعاين، بعد

ذلك، وصول الجنود الكوبيين، الذين سرعان ما أعادوا النظام إلى البناية، بالصفع والركلات، واستعادوا السيطرة على البث الإذاعي.

وهو يغادر، منزعجاً بسبب الأحداث، رأى شاحنة عسكرية تصدم سيارة. هرع لإنقاذ ركابها. تعرّف على الفور أحد الجرحى، وهو شخص سمين، ذو ذراعين قويتين وقصيرتين، الذي استوقفه يوماً ما في الإذاعة. انتبه، بعد ذلك، إلى الشاب الفارع، النحيف مثل مومياء، بمعصميه المكبلين بالأصفاد. لم يتردد. ساعد الشاب على أن ينهض، ثم غطى يديه بالمعطف، وأخذه إلى الشقة.

لماذا ساعدْتَني؟

ردد هذا السؤال مرات لا تحصى، خلال السنوات الأربع التي قضاها مختبئاً في شقة مهندس الصوت. فلا يجيبه الصديق إلا لماماً. يطلق قهقهة عالية لرجل حر، يهز رأسه، ثم يحول مجرى الحديث. ذات يوم، أجابه بصوت حازم: كان والدي كاهناً. كان كاهناً جيداً، وأباً رائعاً. حتى اليوم، ما زلتُ لا أثق بالكهنة الذين لا أبناء لهم. كيف يمكن للمرء أن يكون كاهناً دون أن يكون أباً؟ والدي علمني أن أساعد الضعفاء. في تلك المناسبة، عندما رأيتُك ممدداً فوق الرصيف، بدوْت لي ضعيفاً جداً. بالإضافة إلى ذلك، تعرفتُ أحد رجال الشرطة، وهو ضابط أمن، كان يستجوب

الناس لمصلحتي. لا أحب شرطة التفكير. لم أحبهم قط. فقمتُ بما أملاه علي ضميري.

ظل السوبا الصغير مختبئاً لعدة شهور طويلة. بعد وفاة الرئيس الأول، قام النظام بمحاولة انفتاح محتشمة. تمّ تحريرُ المعتقلين السياسيين غير المرتبطين بالمعارضة المسلحة. تلقى بعضهم دعوات لشغل مناصب في جهاز الدولة. عندما خرج إلى شوارع العاصمة، بين خائف وفضولي، اكتشف السوبا الصغير أن كل الناس تقريباً كانوا يحسبونه ميتاً. كان بعض الأصدقاء يؤكدون أنهم حضروا جنازته. بل إن بعض رفاق النضال كانوا يبدون خيبتهم من مقابلته حياً يرزق. أما مادلينا، فاستقبلته بفرح. في السنوات الأخيرة، أنشأت منظمة غير حكومية، «حساء الحجارة»، هدفُها تحسين النظام الغذائي لساكني أحياء الصفيح في لواندا. تجوب أفقر أحياء العاصمة، تعلم الأمهات كيف يغذين أبناءهن بأحسن طريقة ممكنة، وبما توفر لهن من وسائل هزيلة.

يمكن أن نأكل دون أن ننفق أكثر، شرحت للسوبا الصغير: أنت وأصدقاؤك تتشدقون بكلمات طنّانة، **عدالة اجتماعية، حرية، ثورة**، بينما الناس تسوء صحتهم يوماً عن يوم، فيمرضون، ويموت منهم الكثيرون. الخطابات لا تطعم أحداً. إن ما يحتاجه الشعب هو خضراوات طازجة وحساء سمك جيد، مرة في الأسبوع على

الأقل. لا تهمني سوى الثورات التي تبدأ أولاً بأن تُقعد الشعب إلى مائدة الطعام.

تحمّس الشاب. بدأ يرافق الممرضة مقابل راتب رمزي، ثلاث وجبات يومية، سرير نوم وملابس نظيفة. أثناء ذلك، مرت أعوام، وسقطت أسوار. ثم جاء السلم، فأجريت الانتخابات، وعادت الحربُ. تمّ تفكيكُ النظام الاشتراكي على يد نفس الأشخاص الذين شيدوه، فانبعثت الرأسمالية من رمادها، أكثر شراسة من أي وقت مضى. هكذا، كان أشخاص، ظلوا إلى وقت قريب في مآدبهم العائلية، وفي الحفلات، والتجمعات السياسية، والمقالات الصحفية، يهاجمون الديمقراطية البورجوازية، يتجولون الآن مُهندمين، يرتدون ملابس ذات علامات معروفة، ويستقلون سيارات برّاقة.

ترك السوبا الصغير لحيةً وقورة تكبر فوق صدره النحيف. ظل أنيقاً، وعلى اللحية حافظ على شكله الشاب. لكنه بدأ يمشي مائلاً شيئاً ما نحو اليسار، كما لو أن زوبعة عنيفة تدفعه من الداخل. ذات ظهيرة، وهو يرى سيارات الأثرياء تمر أمامه، تذكر أحجار الماس. اتبع نصائح بَّابِّي بولينْغو، فذهب إلى سوق روكي سانْتيرو. كتب اسماً على ورقة صغيرة. وبينما ترك حشد الناس ليجرفه، قال مع نفسه إنه يستحيل تحديد موقع أي كان وسط هذه الفوضى

العارمة. خشي ألا يستطيع الخروج أبداً. وكان مخطئاً. توجه إلى أول تاجر فدلّهُ على وجهة معينة. وأكد له تاجر آخر، على بعد بضعة أمتار، تلك الوجهة. بعد مرور خمسَ عشرة دقيقة، توقف أمام كوخ رسمَ أحدهم على بابه، بخطوط فظة، صدر امرأة ذات عنق طويل، تضيئه قلادة من أحجار الماس. طرق الباب. استقبله رجل نحيف، يرتدي معطفاً وسروالاً ورديْن، وربطة عنق وقبعة بلون أحمر ساطع. كان حذاؤه، المصقول بعناية، يلمع في العتمة. فتذكر السوبا الصغير «المتأنّقين» الذي قدمهم له بَابِّي بولينْغو قبل سنوات، خلال زيارة خاطفة إلى كينشاسا. و«المتأنّقون» هو الاسم الذي يطلقه أهل الكونغو على المهووسين بالموضة. أشخاص يرتدون ملابس باهظة الثمن ومثيرة للانتباه، ينفقون في اقتنائها ما يملكون وما لا يملكون، حتى يتنزهوا في الشارع كأنهم عارضو أزياء فوق منصّة.

دخل. رأى طاولة مكتب وكرسيْن. كانت مروحة معلقة في السقف تحرك الهواء الراكد وهي تجذف بتثاقل.

جايمي بانْغيلا، قدم «المتأنّقُ» نفسه، ودعاه ليقعد.

أبدى بانْغيلا اهتماماً بالأحجار. فحصها، أولاً، تحت ضوء مصباح. ثم اقترب من النافذة، سحب الستار، وتفحّصها وهو يقلبها بين أصابعه تحت الأشعة القوية لشمس شبه عمودية. ثم

قعد أخيراً: هذه الأحجار، على صغر حجمها، جميلة، وخالصة جداً. ليس لدي أدنى رغبة في أن أعرف كيف حصلتَ عليها. أخاطرُ بمواجهة بعض المشاكل إن حاولتُ تسويقها. لا أستطيع أن أدفع لك مقابلها أكثر من سبعة آلاف دولار.

رفض السوبا الصغير، فضاعف بانْغيلا عرضه. أخرج رزمة أوراق مالية من أحد الجوارير، وضعها داخل علبة أحذية، ودفعها باتجاه الآخر.

ذهب السوبا الصغير وجلس في حانة قريبة من هناك، ووضع علبة الأحذية فوق الطاولة، ثم أخذ يفكر فيما سيفعله بالمال. انتبه إلى علامة الجعة، شكلُ طائر يبسط جناحيه، فتذكر الحمامة. كان ما يزال يحتفظ بأنبوب البلاستيك، الذي ما زال يمكن أن تُقرأ فيه، ولو بصعوبة، هذه العبارة:

غداً. الساعة السادسة، في المكان المعتاد. كوني حذرة جداً. أحبك.

من كتبَ ذلك؟

ربما يكون موظفاً سامياً من موظفي شركة «ديامانغ»[1]. تخيل رجلاً، بوجه صارم، يخربش الرسالة، ويضع الورقة في الأسطوانة

(1) شركة استغلال مناجم الماس في أنغولا سابقاً. (المترجم)

البلاستيكية ثم يشدها، بعد ذلك، إلى رجْل الحمامة. تخيّلهُ وهو ينضّد أحجار الماس في منقار الطائر، واحداً تلو الآخر، ثم يطلق الطائر، بعد ذلك، ليطير من بيت محاصر بين أشجار مانجو عالية وكثيفة في دونْدو إلى سماء العاصمة المحفوفة بالأخطار. تخيّلَ الطائر وهو يحلق فوق الغابات الداكنة، والأنهار المدهشة، والجيوش العديدة المتصارعة.

نهض مبتسماً. كان يعرف الآن ما سيفعله بالمال. في الشهور التي تلت، خلق ووضع أسس مقاولة صغيرة لتسليم الطرود أطلق عيها اسم «الحمام الزاجل». وكان يروقه أن يطابق معنى كلمة «حمامة» في لغة الكيمبودو معنى «حامل رسالة». ازدهرت تجارته، وانضافت إليها مشاريع أخرى. استثمر في مجالات مختلفة، من الفندقة إلى العقار، ودائماً بنجاح كبير.

ذات ظهيرة، شهر ديسمبر، والجوُّ مشرق، التقى مع بَّابِّي بولينْغو في ريالتو. طلبا جعة. وظلا يتحدثان على مهل، مسترخيين في رتابة الظهيرة كما لو أنهما في قعر أرجوحة شبكية.

كيف هي حياتك يا بَّابِّي؟

إنها تعيشُنا.

وأنت، هل ما زلت تغني؟

قليلاً، يا أخي. لم أُقم أي حفل. فوفو غريب الأطوار هذه الأيام.

طُرد بَّابِّي بولينْغو من عمله في **الإذاعة الوطنية**، وظل يتحايل على العيش بصعوبة بإقامة الحفلات. جلب له أحد أبناء عمه يشتغل مرشد قنص، فرس نهر قزم من الكونغو. وجدَ المرشد الحيوان في الغابة، وهو ما يزال رضيعاً، ينظر يائساً إلى جثة أمه. أخذ عازف القيثارة الحيوان إلى شقته. أطعمه بالرَّضّاعة. علّمه كيف يرقص الرُّومْبا الزائيرية. أصبح فوفو يرافقه في العروض التي يقيمها في الحانات الصغيرة في ضواحي لواندا. حضر السوبا الصغير إلى العرض في مناسبات كثيرة، وخرج منه دائماً جدُّ دهِش. المشكلة أن فرس النهر كان يكبر أكثر من اللازم. إن أفراس النهر القزمية، (المعروفة باسمها العلمي Choeropsis liberiensis)، تبدو صغيرة الحجم مقارنة مع أقربائها المعروفين، لكنها، حين تصير كبيرة، يمكن أن تبلغ حجم خنزير كبير. صارت احتجاجات الجيران تتكاثر في العمارة. كان الكثير منهم يملكون كلاباً. البعض يصر على تربية الدجاج في الشرفات، وكذلك الماعز، وربما بعض الخنازير. لا أحد كان يملك فرس نهر. فرس النهر، حتى لو كان فناناً، يثير هلع السكان. كان بعضهم، حين يرونه في الشرفة، يرمونه بالحجارة.

أدرك السوبا الصغير أنه حان الوقت لمساعدة صديقه.

كم تريد مقابل الشقة؟ أنا بحاجة إلى شقة في قلب العاصمة. وأنت بحاجة إلى ضيعة، إلى فضاء واسع تربي فيه فرس النهر.

تردد بَّابِّي بولينْغو:

منذ سنوات وأنا في هذه الشقة. أظن أنني قد أصبحت متعلقاً بها.

خمسمائة ألف؟

خمسمائة ألف؟ خمسمائة ألف ماذا؟

أعرض عليك خمسمائة ألف دولار مقابل الشقة. وبكل هذا المال تشتري ضيعة رائعة. ضحك بَّابِّي بولينْغو متسلياً. بعد ذلك، انتبه إلى الوجه الجدي لصديقه، فتوقف عن القهقهة. رفع رأسه: ظننتُ أنها مزحة. هل تملكُ خمسمائة ألف دولار؟

نعم. هذه وعدة ملايين أخرى. ملايين كثيرة. إنني لا أقدم لك أي خدمة، بل أظن أنه استثمار رائع. عمارتكم في حالة جد متدهورة، لكن، بعد طبقة صباغة جيدة، ومصاعد جديدة، سوف تستعيد بريق أيام المُعمّرين. وقريباً سوف يبدأ المشترون بالظهور. جنرالات. وزراء. أشخاص يملكون من المال أكثر مما أملك بكثير. سوف يقدمون بعض المال لإخراج الناس من العمارة.

ومن لن يخرجوا بمحض إرادتهم سيضطرون للخروج مكرهين.

هكذا وجد السوبا الصغير نفسه يملك شقة بَّابِّي بولينْغو.

العمى
(وعيون القلب)

إنني أفقد البصر شيئاً فشيئاً. أغمض عيني اليمنى فلا أرى غير أشباح. كل شيء غير واضح. أمشي متمسكة بالجدران. أقرأ بصعوبة، وتحت ضوء الشمس فقط، مستعملة عدسات مكبرة أكثر فأكثر قوة. أعيد قراءة الكتب الأخيرة، تلك التي أرفض أن أحرقها. لقد أحرقتُ الأصوات الجميلة التي رافقتني طوال كل هذه السنين.

أحياناً أفكر أنني قد جننتُ.

من السطح رأيتُ فرس نهر يرقص في شرفة الشقة المجاورة. سراب، أعرف ذلك جيداً، لكني رأيتُه. ربما يكون الجوع. لقد تغذيتُ بشكل سيء.

الوهن، البصر الذي بدأ يتلاشى، كل هذا يجعلني أتعثر في الحروف وأنا أقرأ. أقرأ صفحات لطالما قرأتها، لكنها صارت مختلفة. أخطئ وأنا أقرأ، وأحياناً تقودني تلك الأخطاءُ إلى اكتشافات رائعة. أجدُ نفسي كثيراً في الخطأ.

بعض الصفحات تُصبح أفضل مع الخطأ.

وهجٌ من الحباحب يلمعُ في الغرف. أتحرك مثل مَدوسَة وسط هذا الضباب المضيء. أغرق في أحلامي. ربما هذا هو ما يمكن أن نسميه الموت.

كنتُ سعيدة في هذا البيت، في بعض فترات الزوال حين كانت الشمس تزورني في المطبخ. أجلس إلى المائدة فيأتي شبح ويضع رأسه على ركبتيّ.

لو كان ما يزال لدي مزيد من الفضاء، والفحم، والجدران الشاغرة لتمكنتُ من كتابة نظريةٍ عامة للنسيان.

أدرك أنني قد حولت الشقة كلها إلى كتاب فسيح. بعد أن أُحرقَ المكتبة، وبعد أن أموتَ، لن يبقى هناك غير صوتي.

في هذا البيت كل الجدران لها فمي.

جامِعُ الاختفاءات

بين 1997 و 1998 اختفت في سماء أنغولا خمس طائرات، مع ما مجموعه 23 راكباً، يتحدرون من روسيا البيضاء، وروسيا، ومولدافيا، وأواكرانيا. يوم 25 مايو 2003، تاهت طائرة من نوع بوينغ 727، تابعة لشركة الطيران الأمريكية، فوق مطار لواندا ولم تظهر بعد ذلك قط. كانت الطائرة قد ظلت دون تحليق منذ 14 شهراً.

يجمعُ دانييل بنْشيمول قصص الاختفاءات في أنغولا. كل أنواع الاختفاءات، مع أنه يفضل الاختفاءات الجوية. يبدو أنه دائماً أكثر إثارة أن تختطف السماءُ المرءَ، كما فعلت مع يسوع أو مع أمه، على أن تبتلعهُ الأرضُ. طبعاً، هذا صحيح إن لم نكن نتحدث مجازياً. أشخاص وأشياء ابتلعتها الأرض حرفياً، كما يبدو أنه قد حدث للكاتب الفرنسي سيمون بْيير مولامْبا، تُعد أحداث نادرة جداً، مع ذلك.

يُصنِّفُ الصحفي الاختفاءات وفق سُلّم يتراوح بين صفر وعشر درجات. إن الطائرات الخمسة التي اختفت في أجواء أنغولا، مثلاً، قد صنفها بنْشيمول بوصفها اختفاءات من الدرجة الثامنة. وصنف اختفاء طائرة بوينغ 727 في الدرجة التاسعة. تماماً

كما صنف اختفاء سيمون بْيير مولامْبا. حلَّ مولامْبا بلواندا يوم 20 أبريل من سنة 2003، بدعوة من مؤسسة التحالف الفرنسي، لإلقاء محاضرة حول حياة وأعمال الكاتب السينغالي ليوبولدو سيدار سنغور. كان رجلاً فارعاً، متميزاً، يضع دائماً على رأسه قبعة لِبْدية تميل قليلاً جهة اليمين، في مبالاة مقصودة. أعجب سيمون بْيير بمدينة لواندا أيّما إعجاب. كانت تلك أول زيارة له إلى أفريقيا. كان والده أستاذاً للرقص اللاتيني وينحدر من بونْتا نيغْرا. حدثه عن الحرارة، وعن الرطوبة، وعن خطر النساء، لكنه لم يهيئه لمواجهة كل تلك الحياة المفرطة، كل ذلك التعاقب المتسارع من الأحاسيس، وكل ذلك التدفق المدوخ من الأصوات والروائح. في الليلة الثانية، وبعد المحاضرة، قبل الكاتب دعوة إيزابيلا مونْتش، طالبة شابة في شعبة الهندسة، ليشربا معاً في واحدة من أرقى الحانات في الجزيرة. ثم قضى الليلة الثالثة يرقص على نغمات المورْنا والكولادير في حديقة أشخاص ينحدرون من الرأس الأخضر في شيكالا، رفقة صديقتين لإيزابيلا. وفي الليلة الرابعة، اختفى. ذهب الملحقُ الثقافي في السفارة الفرنسية، الذي اتفق على أن يتناول العشاء معه، ليبحث عنه في مكان إقامته، وهو مكان جميل قرب بارّا دا كْوانْزا. لم يرهُ أي أحد، ولم يكن هاتفه يردّ. في الغرفة، ظلّ السرير مرتباً، والأغطية مبسوطة، وقطعة شوكولاتة فوق الوسادة.

علم دانييل بنْشيمول باختفاء الكاتب قبل الشرطة. كانت مكالمتان هاتفيتان كافيتيْن له ليعلم بكل تفصيل، أين ومع من قضى سيمون بْيير الليالي الثلاثة الأولى. وأجرى مكالمتيْن أخريْن ليكتشف أن هناك من رأى الفرنسي يخرج، على الساعة الخامسة فجراً، من مرقص في كيناشيشي، يرتاده مغتربون أوروبيون، مراهقات في الرابعة عشرة، وشعراء يشعرون بالعطش أكثر من الإلهام. في تلك الليلة بالذات، ذهب إلى المرقص. كان رجال كُرْشٌ، يتصببون عرقاً ويشربون في صمت، وآخرون، جالسون إلى موائد معتمة، يداعبون رُكباً عارية لفتيات صغيرات السن. لفتت إحدى الشابات انتباهه لأنها كانت تضع على رأسها قبعة لبدية سوداء، بها شريط دقيق ذو لون أحمر. كان يهمُّ بالتوجه نحوها عندما قام شخص أشقر، ذو شعر طويل مشدود على شكل ذيل حصان، وأمسكه من ذراعه:

إن كْويني بصُحبتي.

طمأنه دانييل:

هدئ من روعك. فقط أريد أن أطرح عليها سؤالاً.

نحن لا نحب الصحفيين. هل أنت صحفي، يا سيدي؟

في بعض الأيام، يا صديقي. لكني أشعر، بالأحرى، أنني يهودي.

تركه الآخر وهو في حيرة من أمره. فحيّا دانييل كُويني:

مساء الخير. فقط أريد أن أعرف أين وجدتِ هذه القبعة.

ابتسمت الفتاة:

جاء خلاسي فرنسي إلى هنا أمس، وضاعت منه.

ضاعت منه القبعة؟

أو بالأحرى، حدث العكس. الخلاسي هو الذي ضاع. والقبعة وجَدَتْني.

شرحتْ له أنه، ليلة البارحة، رأى مجموعة من الأطفال، من أولئك الذي يسكنون الشارع، الفرنسي يخرج من المرقص. توقف على بعد بضعة أمتار، وراء بناية، ليتبوّل فابتلعته الأرض. ولم يتبق منه غير القبعة.

ابتلعته الأرض؟

هذا ما يُقال يا رجل. ربما تكون رمالاً متحركة، ربما يكون سحراً، لست أدري. سحب الأطفال القبعة بواسطة عصا طويلة. واشتريتُ أنا منهم القبعة. إنها الآن في ملكي.

غادر دانييل المرقص. كان طفلان يشاهدان التلفاز، وهما جالسيْن على الرصيف، أمام واجهة إحدى المحلات التجارية.

لم يكن صوت الجهاز يصل إلى الخارج، فكان الاثنان يرتجلان ما يقوله مختلف الممثلين من حوار. كان الصحفي قد رأى ذلك الفيلم من قبل. لكن، الحوارات الجديدة كانت تغير الحبكة تغييراً تاماً. ظل لبضع دقائق يتسلى بالمشهد. اغتنم فترة الإعلانات ليتوجه إلى الطفلين:

لقد أخْبَروني أن شخصاً، فرنسياً، اختفى بالقرب من هنا مساء البارحة. ويبدو أن الأرض قد ابتلعته.

نعم، أكد أحد الطفليْن: تحدثُ مثل هذه الأشياء.

هل رأيتما ذلك؟

لا. لكن بايّاكو رأى ذلك.

سأل دانييل أطفالاً آخرين، في الأيام الموالية، وكلهم تحدثوا عن النهاية التعيسة لسيمون بْيير كما لو أنهم كانوا شاهدين على ذلك. لكن، ما إن تحاصرُهم الأسئلة حتى يعترفوا أنهم لم يكونوا هناك. الأكيد أنه لم ير أي أحد قط مرة أخرى الكاتب الفرنسي. فأوقفت الشرطة البحث في القضية.

وِفْق سُلّم بنْشيمول، هناك فقط اختفاء واحد مصنف في الدرجة العاشرة. وقد كان الصحفي بنفسه شاهداً على هذا الضّياع الذي لا يُصدَّقُ. يوم 28 أبريل 1988، قامت **جريدة أنغولا**، التي

يشتغل دانييل لصالحها، بإرساله برفقة أحد المصورين، وهو كوتا كوداك الشهير، المعروف اختصارا ب ك ك، إلى بلدة صغيرة تدعى نوفا إسْبيرانْزا، حيث ربما تكون 25 امرأة قد تعرّضْن للقتل، بعد الشك في ممارستهن للسحر. لقد قَدِمَ المراسلان الصحفيان على متن طائرة تجارية، حطت بمطار هْوامْبو. كان سائق سيارة أجرة بانتظارهما ليأخذهما إلى نوفا إسْبيرانْزا. حين وصلا إلى هناك، تحدث دانييل مع السوبا وعدة قرويين. قام ك ك بتصويرهم. كان الليل يحل عندما عادا إلى هوامْبو. وكان عليهما أن يعودا إلى نوفا إسْبيرانْزا في اليوم الموالي، على متن طائرة مروحية تابعة للقوات الجوية. لكن، الربان كان عاجزاً عن تحديد مكان القرية: غريب، قال معترفاً، بعد ساعتين كاملتين من الدوران محلقاً في الأجواء: لا يوجد أي شيء في هذه الإحداثيات. هناك في الأسفل، لا يوجد غير العشب.

انزعج دانييل من عدم كفاءة الشاب. استأجر مرة أخرى خدمات ذلك السائق الذي أخذهما في المرة الأولى. رفض ك ك أن يرافقهما:

لا يوجد أي شيء يمكن تصويره. لا يمكن تصوير الغيابات.

ثم قاما بجولة في النواحي بالسيارة، وزارا مرة أخرى نفس المناظر، كما لو أنهما في حلم، في وقت الحلم اللا متناهي، إلى

أن اعترف السائق أيضا بحَيْرته:

لقد تهنا!

نحن تهنا؟ أنت الذي تهت!

حدق فيه الرجل بغضب، كما لو أنه يعده مسؤولاً عن هذيان العالم.

الحقيقة أن هذه الطرقات سكرانة تماماً. وكان يوجه ضربات قوية إلى مقود السيارة: أظن أننا ضحايا حادثة جغرافية!

فجأة، مثُل أمامهما منعرجٌ فخرجا من ذلك الخطأ أو من ذلك الوهم، دائخيْن يرتعشان. لم يجدا نوفا إسْبيرانْزا. لكن، لوحة إشارة أعادتهما إلى الطريق، ومن هناك إلى هوامْبو. كان ك ك في انتظاره بالفندق، يشبك ذراعيه فوق صدره النحيف، مقطب الوجه: لدي أخبار سيئة، يا زميلي. لقد عالجْتُ أشرطة الصور، وكانت كلها معتّمة. إنهم لا يزودوننا سوى بمعدات رديئة. من سيء إلى أسوأ.

في مقر الجريدة، لم يبدُ أحد منزعجاً لخبر اختفاء نوفا إسْبيرانْزا. وأطلق رئيس التحرير، مارسيلينو أسونساوْ دا بووا مورْتي، قهقة عالية: اختفت البلدة؟ كل شيء يختفي في هذا البلد. ربما يكون البلد بالكامل في طريق الاختفاء، ضيعة هنا،

وأخرى هناك، ويوم ننتبهُ للأمر لن يبقى أي شيء.

في سنة 2003، بعد أسابيع قليلة على الاختفاء الغامض للكاتب الفرنسي سيمون بْيير مولامْبا، الذي خصته الصحف الأنغولية بشيء من الأهمية الإعلامية، نادى مارسيلينو أسونْساوْ دا بووا موڑتي على دانييل إلى مكتبه. ثم قدم له ظرفاً ذا لون أزرق: لدي شيء يهمك، أنت الذي تجمع الاختفاءات. اقرأ هذا، وانظر إن كنت تستطيع أن تحصل منه على شيء ما.

الرسالة

السيد مدير جريدة أنغولا المحترم،

اسمي ماريّا دا بييدادي لورينْسو دياشْ وأنا طبيبة نفسانية. قبل سنتين تقريباً، اكتشفتُ حقيقة فظيعة: أنني كنتُ ابنة بالتبنّي. سلمتني أمي البيولوجية للتبني فوراً بعد الوضع. حيرني ذلك، فقررت أن أستقصي أسباب هذا الفعل. تعرضت لودوفيكا فيرْنانْدشْ مانو، هذا هو اسم أمي البيولوجية، لاغتصاب عنيف من لدن شخص مجهول صيف سنة 1955، فحملت. ومنذ ذلك الحادث المأساوي، عاشت في بيت شقيقتها الكبرى، أوديتي، التي تزوجت سنة 1973 من مهندس مناجم يسكن في لوانْدا، ويدعى أورلاندو بيريرا دوس سانتوشْ.

لم يعودوا إلى البرتغال بعد استقلال أنغولا، ولا تحتفظ قنصلية البرتغال في لوانْدا أيضاً على أثر لأي واحد منهم. إنني أتجرأ وأكتب إليكم وأنا أريد أن أعرف إن كان بإمكان جريدتكم أن تساعدني، بطريقة أو بأخرى، في العثور على لودوفيكا فيرْنانْدشْ مانو.

مع فائق التقدير والاحترام.

ماريّا دا بييدادي لورينْسو

موتُ شبح

مات شبح أثناء نومه. صار قليل الأكل في الأيام الأخيرة. في حقيقة الأمر، لم يأكل كثيراً قط -لم يكن هناك أكل كثير أبداً- وربما هذا ما يفسر أنه عاش كل هذه السنوات. لقد بيَّنت التجارب المخبرية أن متوسط العمر المتوقع يرتفع كثيراً لدى الفئران الخاضعة لنظام حمية يتشكل من وحدات حرارية منخفضة.

استيقظت لودو، وكان الكلب ميتاً.

جلست المرأة على السرير، قبالة النافذة المفتوحة. لفّت ركبتيْها النحيفتين بذراعيها. رفعت عينيها إلى السماء حيث كانت تتشكل، شيئاً فشيئاً، سحب خفيفة ذات لون وردي. كانت دجاجات يققن في السطح. بكاءُ طفل يصعد من الطابق الأسفل. شعرت لودو أن صدرها بدأ يصير فارغاً. شيء ما -مادة داكنة- كان يخرج من داخلها، كما يخرج الماء من وعاء مشقوق، ثم يندلق بعد ذلك فوق الإسمنت البارد. لقد فقدت الكائن الوحيد في هذه الدنيا الذي كان يحبها، والوحيد الذي كانت تحبه، ولم يكن في عينيها من دموع تذرفها عليه.

نهضت، اختارت قطعة فحم، شحذتها، وباشرت الكتابة على أحد الجدران الذي كان أكثر نظافة في قاعة الضيوف:

مات شبح هذه الليلة. كل شيء صار الآن دون جدوى. كانت نظرته تداعبني، تشرح لي وتسندني.

ثم صعدت إلى السطح دون الاحتماء بالعلبة الكرتونية القديمة. كان النهار يتمطط في تثاؤب فاتر، ربما يكون يوم الأحد. الشوارع مقفرة. رأت مجموعة من النساء يمررن وهن يرتدين بياضاً ناصعاً. واحدة منهن، حين لمحتها، رفعت يدها اليمنى على سبيل تحية سعيدة.

تراجعت لودو إلى الوراء.

كان بإمكانها أن تقفز، فكرت. يمكن أن تتقدم. تصعد فوق الحاجز. أمر في غاية السهولة.

قد تراها النساء، هناك في الأسفل، للحظة وجيزة، ظلاً خفيفاً يرفرف ثم يسقط. تراجعت إلى الخلف، وتابعت تراجعها، وقد حاصرتها الزرقةُ، والشساعةُ، ويقينُ أنها ستبقى حية، حتى من دون أي شيء يعطي معنى لحياتها:

الموتُ يحوم من حولي، يكشر عن أسنانه، ويزمجر. أجثو على ركبتيّ وأُقدم له حنجرتي العارية. تعال، تعال، تعال الآن يا صديقي. اعْضُضْ. دعني أرحل. آه، لقد جئتَ اليوم ونسيتني ..

..... الليلُ.
ها قد حل الليل مرة أخرى. لقد أحصيتُ من الليالي ما يفوق عدد النُّهُر. .....

اللّيلُ يتضاعف مرتين. ليلاً، كأني بالظلام يغني. الليلُ يصعد ويموج، ملتهماً البنايات. أفكر، مرة أخرى، في تلك المرأة التي أعدتُ لها الحمامة. امرأة فارعة، ذات عظام ناتئة، بذلك الازدراء الخفيف الذي تتحرك به النساء الجميلات عبر الواقع. إنها تتجول في ريو دي جانيرو، على ضفة البحيرة (رأيتُ صوراً، ووجدتُ في المكتبة عدة ألبومات عن البرازيل). يصادفُها بعض الدرّاجين. من يطيلون النظر إليها لا يعودون أبداً. اسم المرأة سارة، أنا أسمّيها سارة. تبدو كأنها خرجت من إحدى لوحات موديغلياني.

مكتبة
t.me/t_pdf

حول الرّب وأنواع أخرى من الهذيان الصغير

يبدو لي أنه من الأسهل أن نؤمن بالرّب، مع أن ذلك يتجاوز إدراكنا المحدود، على أن نؤمن بالإنسانية المتغطرسة. خلال سنوات طويلة تأكد لي أنني مؤمنة بدافع من الكسل الخالص. ربما كان من الصعب عليّ أن أشرح لأوديتي، ولكل الآخرين، عدم إيماني. ولا أومن بالبشر أيضاً، لكن الناس يتقبلون هذا الأمر بسهولة. أدركتُ خلال السنين الأخيرة أنه كي نؤمن بالرّب لا بد أن نثق بالإنسانية. فالرّب لا يوجد من دون الإنسانية.

مازلتُ لا أؤمن بالرّب، ولا بالإنسانية. منذ أن مات شبح بدأت أُقدِّس روحه. أتحدثُ معه. أظن أنه يسمعني. وأؤمنُ بذلك ليس بمجهود خيالي، ولا حتى بذكائي، بل تحت تأثير قدرة أخرى، يمكن أن نسميها

اللاّ منطق.

هل أتحدّثُ مع نفسي؟

هذا ممكن. كما أن القديسين يتبجحون بأنهم يتحدثون مع الرّب. أنا أقل غطرسة منهم. أتحدث مع نفسي، وأتصور أنني أتحدث مع روح وديعة لكلب. على أي حال، هذه الأحاديث تشعرني بالسعادة.

تعويذة

أنظم قصائد

قصيرة

كالصلوات.

الكلمات جحافل

من الشياطين

المطرودة

أقطعُ ظروفاً

وضمائر

وأُنقذُ معْصميّ.

يوم أنقذت لودو مدينة لْواندا

على جدار قاعة الضيوف عُلِّقت لوحة مائية تُصورُ مجموعة من النساء الموكابيات وهن يرقصن. كانت لودو قد تعرّفت على الفنان، ألْبانو نيفيش إي سوزا، شخص كثير المزاح، مسلٍّ، مضحك، وصديق قديم لصهرها. في البداية، كرهت اللوحة. كانت ترى فيها كل ما يُرعبها في أنغولا: متوحشون بصدد الاحتفال بشيء ما -فرح، فأل حسن- غريب عنها. بعد ذلك، وشيئاً فشيئاً، خلال الأشهر الطويلة من الوحدة والصمت، بدأت تقع في حب تلك الأشكال المتحركة حول نار مشتعلة، كما لو أن الحياة تستحق كل تلك الأناقة.

أحرقتْ الأثاث، أحرقتْ آلاف الكتب، أحرقتْ كل اللوحات. ولم تنزعْ لوحة الموكابيات من الجدار إلا عندما بلغ اليأس منها حدّه. كانت على وشك أن تنتزع المسمار، لأسباب جمالية فحسب، لأنه كان يبدو لها غير ملائم هناك، ومن دون فائدة، عندما خطر على بالها أنه ربما تكون تلك القطعة المعدنية هي التي تشد تماسك الجدار. وربما تضمن توازن العمارة كلها. من يدري، لو نزعت المسمار من الجدار قد تنهار المدينة بكاملها.

فلم تنزع المسمار.

أشباح، وسقطة تكاد تكون مميتة

انقضى شهر نوفمبر من دون سحب. وكذلك مرّ ديسمبر. جاء فبراير وكان الجو يطقطق من الجفاف. رأت لودو كيف جفت البحيرة. في البداية، أصبحت داكنة، وصار عشبها ذهبي اللون، شبه أبيض، ثم فقدت الليالي نقيق الضفادع. عدّت المرأة قناني الماء. لم يتبق لديها سوى القليل. أما الدجاجات، التي أشْربتها ماء المسبح الوحل، فقد مرضت، وماتت جميعها. كان ما يزال هناك ما تبقى من الفاصوليا والذرة، لكن طبخها يحتاج لكثير من الماء، وعليها أن تقتصد في استعماله.

بدأت تعاني من الجوع مرة أخرى. نهضت ذات فجر، تنفض كوابيسها، ثم دخلت مترنحة إلى المطبخ، فرأت خبزاً فوق المائدة:

خبز!

أمسكته غير مصدقة بكلتا يديها.

تشمّمتهُ.

رجعت بها رائحة الخبز إلى زمن الطفولة. هي وأختها في الشاطئ، تقتسمان خبزاً بالزبدة. عضت العجين. ولم تنتبه إلى

أنها كانت تبكي إلا عندما انتهت من الأكل. جلست مرتعشة.

من جلب لها ذلك الخبز؟

ربما يكون أحدهم قد ألقى به من النافذة. تخيلت شاباً عريض الكتفين يلقي بخبز في السماء. فيرسم الخبز منحنى بطيئاً حين ينزل فوق مائدتها. هذا الشخص ربما يكون قد رمى الخبز نحو السماء انطلاقاً من البحيرة، شبه الجافة الآن، كجزء من طقس غامض هدفُه استدرار المطر. ربما يكون ساحراً، أو بطلاً في رمي قطع الخبز، لأن المسافة كانت كبيرة. نامت باكراً تلك الليلة. رأت في حلمها أن ملاكاً جاء لزيارتها.

في الصباح الباكر، وجدت فوق مائدة المطبخ خمس قطع من الخبز، علبة من فاكهة الجَوّافة، وقنينة كوكا كولا من الحجم الكبير. جلست لودو وقلبُها يخفق. كان أحد ما يدخل إلى بيتها ويخرج منه. نهضت. في الشهور الأخيرة، ساء نظرها كثيراً. انطلاقاً من ساعة معينة، ما إن ينقص الضوء حتى تبدأ في التحرك بالحدس. صعدت إلى السطح. جرت حتى وصلت إلى الواجهة اليمنى من العمارة، المطلة على بناية أخرى، تقع على بعد أمتار قليلة، وهي الوحيدة التي لا تتوفر على نوافذ. انحنت فرأت السَّقالات التي تطوّق العمارة المجاورة، وتستندُ إلى جدرانها. لقد دخل المُحتلّ من هناك. نزلت عبر السلالم. ربما بسبب التوتر، أو بسبب الضوء

القليل، الأكيد أنّ الحدس قد خذلها، فأخطأت درجاً وسقطت مضطربة وأغمي عليها. أدركت، حالما استعادت وعيها، أنها قد كسّرت عظم فخذها اليسرى. إذن، ستجري الأمور بهذا الشكل، فكّرت. لن أموت ضحية مرض إفريقي غريب، لن أموت من الضجر والتعب، لن يقتلني لص، ولن تسقط السماء فوق رأسي، بل سأقع في شراك واحدة من أشهر قوانين الفيزياء: **إذا كان جسمان من حجم م1 و م2، على مسافة «ر» بينهما، فإن هذين الجسمين يتجاذبان بقوة تناسب حجم كل واحد منهما وتناسب بشكل معكوس تربيع المسافة التي تفرق بينها.** لقد أنقذها صغر الحجم. لو كان وزنها يزيد بعشرين كيلوغرام لكان الأثر مُدمّراً. امتدّ الألم إلى ساقها، فشلّ الجانب الأيسر من الجذع، ومنعها من التفكير بوضوح. ظلّت جامدة لوقت طويل، بينما كان الليل يتلوى، هناك في الخارج، مثل أَصَلة، يخنق، في الشوارع والساحات، أشجار الأكاسيا المُحاصَرَة. كان الألم يعوي، كان الألم يعضّ. أحست بفمها الجاف. حاولت أن تبصق لسانها، لأنه كان كما لو أنه ليس جزءاً منها، بل قطعة فلين تلبّكت في حلقها.

فكّرت في قنينة كوكا كولا. في القنان التي تحتفظ بها في بيت المؤونة. عليها أن تزحف مسافة خمسة عشر متراً تقريباً. مطّت ذراعَيها، تمسكت بالإسمنت، ورفعت جذعها. كان كما لو أنهم يقطعون ساقها بشفرة فأس. صرخت. ففزعت لصراخها.

لقد أيقظتُ العمارة كلّها، همهمَت.

أيقظت السوبا الصغير في الشقّة المجاورة. كان المقاول يرى في حلمه كْياندا. كان هذا الحلم يتكرّر منذ عدّة ليالٍ. يخرج إلى الشرفة، وسط الليل، فيرى ضوءاً يلمع في البحيرة. يزداد الضوء حجماً، فيصبح قوس قزح دائريًّا وموسيقيًّا، بينما يشعر المقاول أن جسده يفقد وزنه. يستيقظ في اللحظة التي يصعد فيها الضوء للقائه. في تلك المرة استيقظ قبل ذلك؛ لأنّ الضوء صرخ، أو بدا له أن الضوء كان يصرخ، فيما يشبه انفجاراً مفاجئاً من الوحل والضفادع. جلس على السرير، مختنقاً، وقلبه ينطّ من صدره. تذكّر الفترة التي ظلّ أثناءها حبيساً بين جدران تلك الغرفة بالذات. أحياناً، كان يسمع نباح كلب. ويسمع صوتاً قصياً لامرأة تدندن أغاني قديمة.

إن الشقّة مسكونة بالأرواح، أكّد له بَّابِّي بولينْغو: هناك هذا الكلب الذي ينبح، لكن لم يره أحد، كأنه شبح. يقولون إنّه يخترق الجدران. عليك أن تكون حذراً أثناء النوم. الكلب يخترق الجدران، ينبح، هاوْ هاوْ هاوْ، وأنت لا شيء، لا تسمع سوى نباحه، فيستقرّ في أحلامك. هكذا، تصبح أحلامك مليئةً بالنباح. أحد السكّان، في الطابق الأسفل، وهو حِرَفِيّ شابّ، يدعى إيوْستاكْيو، استيقظ ذا صباح عاجزاً عن الكلام. كان ينبح فقط.

أحضروا له طبيباً ساحراً ذائع الصيت. استغرق خمسة أيام ليُخرج من إيوْستاكْيو روح الكلب، ويخلص رأسه من النباح.

كان السوبا الصغير يستغرب لهندسة العمارة. يحيّره أمر الجدار الذي يقطع الرواق، وهي خاصية لا توجد في الطوابق الأخرى. لا بدّ أنّ هناك شقّةً أخرى في ذلك الطابق، لكن أين هي؟

أثناء ذلك، وعلى بعد بضعة أمتار من هناك، في الجهة الأخرى من الجدار، كانت لودو تجهد نفسها لتتقدّم نحو المطبخ. وعند كلّ سنتيمتر، كانت تشعر أنّها تبتعد أكثر من ذاتها. وجدتْها أولى خيوط ضوء الصباح وهي لا تزال في قاعة الجلوس، على بعد مترين من الباب. كانت تحترق من الحمى، والعطش يزعجها أكثر من الألم. حوالي الساعة الثانية بعد الزوال، وصلت إلى الباب. أغمي عليها. استيقظت، فرأت بغير وضوح وجهاً أمامها. رفعت يديها إلى عينيها، وفركتهما. كان الوجه لا يزال هناك. طفل، بدا لها أنه وجه طفل، بعينين كبيرتين دهشتين:

- من أنت؟

- اسمي سابالو.

- هل دخلت عبر السَّقالات؟

- نعم، تسلقتُ السَّقالات. لقد وضعوا سقَّالات في العمارة

المجاورة. إنهم يصبغونها. تصل السَّقالات إلى سطحك تقريباً. بعد ذلك، نضّدتُ بعض الصناديق في السَّقالة الأخيرة وصعدت. كان أمراً سهلاً. وأنتِ، هل سقطتِ؟

- كم يبلغ سنُّكَ؟

- سبع سنوات. هل أنتِ تموتين؟

- لا أدري. بل فكّرتُ أنّني كنت ميتة. ماء. اذهب واجلب لي ماء.

- هل معكِ مال؟

- نعم، أعطيك المال كله، لكن أحضر لي ماء.

نهض الصبي. وألقى نظرة من حوله: لا يوجد أيّ شيء هنا. ولا أثاث. يبدو أنّكِ أكثر فقراً منّي. أين تحتفظين بالنقود؟

- ماء!

- حسنا، يا جدّة، اهدئي، سوف أذهب لأحضر لك مشروباً غازياً.

جلب من المطبخ قنينة كوكا كولا. شربت لودو من عنق القنينة بنهم. أدهشها مذاق الحلاوة؛ لأنها لم تذق طعم السكر منذ سنوات. طَلبت من الطفل أن يذهب إلى المكتب ويجلب كيساً

تحتفظ فيه بالنقود. عاد سابالو يضحك عالياً، وهو ينثر من حوله رزماً من الأوراق المالية.

هذه لم تعد نقوداً جارية، يا جدّة، إنّها من دون أية قيمة.

لديّ أدوات مائدة من الفضّة.

ضحك الطفل:

- لقد أخذتها، ألم تنتبهي لذلك؟

- لا. هل أنت من أحضر لي الخبز البارحة؟

- قبل البارحة. ألا تريدين أن تطلبي طبيباً بالهاتف؟

- لا، لا أريد.

- يمكن أن أنادي أحد الجيران. لا بد أن لك جيراناً.

- لا، لا! لا تنادي أيّ أحد.

ألا تحبّين الناس؟ أنا أيضًا لا أحبّ الناس.

بدأت لودو تبكي:

- اذهب. اذهب.

نهض سابالو:

- أين هو باب الخروج؟

لا يوجد أيّ باب خروج. اخرج من حيث دخلت.

وضع سابالو حقيبته على ظهره واختفى. أخذت لودو نَفَساً عميقاً. استندت إلى الجدار. هدأ الألم. ربّما كان عليها أن تترك الطفل ينادي الطبيب. حينئذٍ فكّرت أنه مع الطبيب قد تأتي الشرطة، ويأتي الصحفيون، وهي تحتفظ بهيكل عظمي في السطح. إنها تفضّل أن تموت هناك، سجينة، لكن حرّة، كما عاشت أثناء الثلاثين سنة الأخيرة.

- حرّة؟

أحيانا كثيرة، وهي ترى الحشود التي تحوم بعناد حول عمارتها، وتسمع تلك الجلبة من المنبهات والصفارات، من الصياح والتوسّل والشتائم، تشعرُ بفزع عميق، وينتابها إحساس بالمحاصرة والتهديد. كلّما شعرت بالرغبة في الخروج تبحث عن عنوان في المكتبة. كانت تشعر أنّها تفقد حرّيتها وهي تحرق الكتب، بعد أن أحرقت كلّ الأثاث، والأبواب، ولوحات الأرضية الخشبية. كان ذلك كأنها تضرم النار في الكوكب. وهي تحرق جورج أمادو، انقطعت عن زيارة إلْيوس وساوْ سالفادور. ولمّا أحرقت **يوليسيس** جويس، فقدت دبلِن. وحين تخلصت من **ثلاثة**

نمور حزينة[1] رأت هافانا العتيقة تحترق. بقي أقلّ من مئة كتاب. كانت تحتفظ بها من باب العناد أكثر مما كانت تحتفظ بها من أجل الاستعمال. كان نظرها سيئاً حتّى إنه على استعانتها بعدسة مكبرة ضخمة، ومع أنها تضع الكتاب تحت أشعة الشمس تماماً، وهي تتصبّب عرقاً كما لو كانت داخل حمام بخار، فإنها تستغرق ظهيرة بكاملها لفك رموز صفحة واحدة. في السنوات الأخيرة، شرعت في كتابة جملها المفضلة في ما تبقى لديها من كتب، بحروف كبيرة، على الجدران التي ما زالت شاغرة في الشقّة. قريباً جدّاً، فكرَت، سأكون سجينة في الحقيقة. لا أريد أن أعيش في سجن. نامت. أيقظتها قهقهةٌ خفيفة. كان الطفل ماثلاً أمامها من جديد، شبحاً أهيف يبرز بوضوح مع ضوء شمس الغروب المضطرب.

ضحك سابالو مرة أخرى:

- آه، يا جدّة! ظننتُ أنّك قد متّ.

وضع حقيبة الظهر عند قدمي السيدة:

- اشتريتُ أدوية. كثيراً من الأدوية. سوف تساعدك.

جلس على الأرض: كما اشتريت مزيداً من الكوكا كولا.

---

(1) رواية للكاتب الكوبي غييرمو كابريرا إنفانتي (1929-2005)، شبهها بعض النقّاد برواية يوليسيس للكاتب الايرلندي جيمس جويس. (المترجم)

وشيئاً من الطعام، دجاج مشوي. هل بك جوع؟

ثم أكلا في المكان عينه، يقتسمان الخبز وقطع الدجاج. أراها سابالو ما اقتناه من أدوية: مسكنات، ومضادات الالتهاب.

ذهبتُ إلى روكي سانتيرو. تحدثتُ مع شخص ما. قلتُ له إن أبي قد ضرب أمي، فكسر ذراعها، وهي الآن تشعر بالخجل من مقابلة الطبيب. فباع لي كلّ هذا. اشتريتُ بمال أدوات المائدة. وبقي منه الكثير. هل يمكنني أن أنام في بيتك؟

ساعد سابالو العجوز على النهوض، وأخذها إلى الغرفة ثم أنامها فوق السرير. تمدّد بجوارها ونام. في صباح اليوم الموالي، ذهب إلى السوق وعاد محملاً بالفاصوليا والخضراوات، وعود الثقاب، والملح، والتوابل المختلفة وكيلوغرامين من لحم العجل. كما جلب معه أيضاً فرناً محمولاً، من تلك الأفران التي يستعملونها في المخيّمات، وقنينة صغيرة من غاز البوتان. ثم حضّر الطعام بنفسه، فوق أرضية الغرفة، متبعاً تعاليم لودو. أكلا معاً بشهية كبيرة. بعد ذلك، غسل الطفل الأواني ورتبها. انتابه الفضول، فراح يتجوّل في أرجاء الشقّة.

لديكِ كتبٌ كثيرة، أنتِ.

كتب كثيرة؟ نعم، كانت لدي كتب كثيرة. إنها قليلة الآن.

لم يسبق لي أن رأيت كل هذا الكمّ من الكتب.

هل تعرف القراءة؟

لا أرتب الحروف جيداً. بقيت في المدرسة مدة سنة واحدة.

هل تريد أن أعلمك؟ أعلمك القراءة وبعد ذلك ستقرأ لي.

تعلم سابالو القراءة أثناء فترة نقاهة لودو. كما علمته السيدة العجوز كيف يلعب الشطرنج. فبدأت تعجبه رقعة الشطرنج. وهو يلعبُ كان يُحدّثها عن الحياة هناك في الخارج. كان ذلك بالنسبة للمرأة كأن يحدثها مخلوق فضائي عن أسرار كوكب بعيد. ذات ظهيرة، اكتشف سابالو أنّهم كانوا يُفكّكون السَّقّالات.

والآن، كيف سأخرج؟

حزنت لودو:

لا أدري!

لكن، في نهاية الأمر، كيف دخلتِ إلى هنا؟

لم أدخل. عشتُ دائماً في هذا البيت.

حدجها الصبي بنظرة حائرة. فاستسلمت لودو للأمر. أخذته حتى بلغا الباب الرئيس، ثم فتحتهُ وأرَتْهُ الجدار الذي شيدته

بنفسها، قبل ثلاثين سنة، لتعزل الشقّة عن باقي العمارة:

في الجهة الأخرى من هذا الجدار هناك العالمُ.

هل يمكنني أن أحطّم الجدار؟

يمكنك ذلك، لكنّي خائفة. خائفة جداً.

لا تخافي، يا جدة. أنا أحميك.

ذهب الشاب وأحضر معولاً، وبعد نصف دزينة من الضربات العنيفة، فتح ثقباً في الجدار. وهو ينظر من الثقب، رأى في الجهة الأخرى السوبا الصغير بوجهه الدَّهِش:

من أنت؟

وسّع سابالو الثقب بضربتين أخريين. وقدّم نفسه:

اسمي سابالو إشتيفاو كابيتانْغو، يا سيدي. وأنا مكلّف بتحطيم هذا الجدار.

نفض المقاول معطفه ممّا علق به من أنقاض. ثم تنحى خطوتين:

يا إلهي! من أيّ كوكب جئت؟

كان بإمكان الطفل أن يستعمل ردّ إلْزا سْواريشْ[1]، في بداية مشوارها، في سن الثالثة عشر، وهي نحيفة جدّاً وترتدي أسمالاً، عندما طرح عليها آري بارّوزو[2] السؤال نفسه (وفي الخلف، كانت قاعة المسرح تنهار من الضحك. كان أحد أبنائها يحتضر في البيت): **جئتُ من كوكب الجوع**. بيد أن سابالو لم يسمع قطّ بإلْزا سْواريشْ، ولا بآري بارّوزو، لذا هزّ كتفيه وأجاب مبتسماً:

إننا نسكنُ هنا.

إننا؟

أنا وجدتي.

تسكنان هنا؟ لديكما شقّة في هذه الجهة؟

نعم.

منذ متى وأنتما تسكنان هنا؟

منذ الأزل.

فعلا؟ وكيف كنتما تخرجان؟

لم نكن نخرج. فقط كنا نسكن. الآن، طبعاً، سنبدأ في الخروج.

---

(1) مغنّية برازيليّة اشتهرت بأداء أغاني السّامْبا. (المترجم)

(2) ممثّل وملحّن برازيلي (1903-1964). (المترجم)

حرّك السوبا الصغير رأسه، مذهولاً:

حسناً، حسناً. عليك أن تنتهي من تحطيم هذا الجدار وبعد ذلك ينبغي أن تنظف الرواق. لا أريد أن أرى أدنى ذرّة غبار، أوكي؟ لم يعد هذا المكان حيّاً صفيحياً، إنه الآن عمارة أنيقة ومحترمة، كما كانت في عهد المُعمّرين.

دخل من جديد إلى شقّته، توجّه إلى المطبخ وبحث عن جعة في الثلاجة. ذهب ليشربها في الشرفة. أحياناً، ينتابُه ما يشبه الحنين إلى الزمن الذي كان فيه مجنوناً بائساً يجوب راقصاً الشوارع والساحات. لم يكن العالم الغارق في أشعة الشمس، ينطوي على أسرار. كان كلّ شيء يبدو له شفافاً وواضحاً، بما في ذلك الرّبُّ، الذي كان يتخذ أشكالاً مختلفة، فيبرز أحياناً أمامه مع حلول الليل ليتجاذب معه أطراف حديث شيق.

موتْياتي بْلوزْ

إن الكوفالي قد لا يتجاوزون اليوم أكثر من 5000 فرداً، لكنّهم يشغلون منطقة واسعة تفوق نصف مساحة إقليم ناميب. ويشكّلون اليوم شعباً يعيش في رخاء، وفق الشروط التي تحظى بتقديرهم: يملكون رؤوساً كثيرة من الأبقار. باستثناء منطقة الشمال الشرقي، لم يكن مجالهم تقريباً مسرحاً لأحداث الحرب، وقد أمطرت السماء بما يكفي في السنوات الأخير، على الأقل بالقدر الكافي لضمان عيش القطعان (بل إنّهم عرفوا سنوات سمان، ومنذ وقت طويل لم يعرفوا سنوات عجاف حقيقية) ومع ذلك، تضعهم مؤشرات تطور أنغولا كل سنة في وضعية نقص غذائي. إنهم لا يستطيعون مقايضة ثيرانهم بالذرة. ولا تزال ثنائية كل هذه الثيران/ كل هذا الجوع علامة إضافية لتفرُّدهم. لكن، أليست هذه الفرادة هي ما يميّز أنغولا أيضا؟ هل هذا البترول/ ...؟

روي دوارتي دي كارفاليو، ضمن كتاب **إشعار للملاّحين. نظرة موجزة وأولية حول رعاة كوفالي**، لواندا، منشورات إنالْد، 1997.

جلس المفتش القرفصاء. حدّق بنظره في العجوز، الجالس في استقامة تامّة، بضعة أمتار أمامه. كان بريق السماء يدوخه، ويمنعه من الرؤية بوضوح. التفت نحو المرشد:

ذلك العجوز، هناك، هل هو خلاسي؟

ابتسم المرشد. وبدا كأن السؤال قد أحرجه.

هذا ممكن. ربّما يكون شخصٌ أبيض قد مرّ من هنا قبل سبعين عاماً. مثلُ هذه الأشياء كانت تقع. وما زالت تقع اليوم. كان الرجال يقدّمون زوجاتهم هدايا للزائرين. ألم تكن تعرف ذلك؟

سمعتُ عن هذا الأمر.

يقومون بذلك. لكن إن رفضت المرأة، فليس هناك أيّ مشكل؛ لأنهم لا يجبرونهن على ذلك. النساء هنا، لهنّ سلطة أكبر ممّا يظنّه الناس.

لا أشكّ في ذلك. هنا وفي أيّ مكان. في نهاية المطاف، سوف تستولي النساء على السلطة كلّها. ثم توجّه إلى الرجل العجوز: هل تتكلّم اللغة البرتغالية؟

مرّر المُخاطَبُ يده اليمنى على رأسه، المغطّى بما يشبه قبّعة،

جميلة جداً، بها خطوط حمراء وصفراء. نظر إلى مونْتي مباشرة في عينيه، في تحدٍّ صامت، فتح فمه شبه الأدرد ثم أطلق ضحكة صغيرة وعذبة انتشرت في الهواء الوضّاح مثل غبار. كان شابٌّ يجلس إلى جانبه، وقال شيئاً ما إلى المرشد. ترجمَ الرجل:

يقول إن العجوز لا يتكلّم. لم يتكلّم قطّ.

نهض مونْتي. مسح العرق عن وجهه بكم قميصه:

إنه يُذكّرُني بشخص عرفته قبل عدة سنوات. مات. شيء مؤسف؛ لأنني كنت سأجد متعة كبيرة في قتله مرة أخرى. الآن، بعدما أصبحتُ عجوزاً، تداهمني الذكريات، بوضوح لا يصدق، وتحاصرني بأشياء من الماضي. كما لو أن أحدهم، داخل رأسي، يتسلّى بتقليب صفحات ألبوم صور قديمة.

كانا يسيران منذ ساعات على طول مجرى نهر جفّت مياهه. نادى مونْتي جنرالٌ كان رفيقَهُ أيام النضال، واشترى مزرعة كبيرة، بالقرب من هناك، ليقدّمها هدية إلى ابنته. أمرت هذه الأخيرة بإقامة حاجز قوي حول المزرعة، لتقطع بذلك طرق الترحال التقليدية التي كان يسلكها الرعاة الموكابيون. في الليلة الموالية، قامت مجموعة من الشباب الموكابيين بمهاجمة المزرعة، وأخذوا شابّاً في الرابعة عشر من عمره، هو حفيد الجنرال، بالإضافة إلى ما

يناهز عشرين رأساً من القطيع.

تقدّم مونْتي خطوتين نحو العجوز:

هل يمكنني أن أرى معصمك؟ معصمك الأيمن؟

كان العجوز يرتدي إزاراً متواضعاً مشدوداً إلى خصره، ذا درجات من الألوان الحمراء والبرتقالية. وفي معصمَيه كانت تلمعُ عدة أساور نحاسية. أمسكه مونْتي من ذراعه. كانَ يتأهب لسحب الأساور عندما أسقطته ضربة. نهض الشابّ الذي كان جالساً قرب العجوز بقفزة واحدة، ووجه ضربة عنيفة إلى صدره، فسقط المفتّش على ظهره، ثم استدار، ابتعد بضعة أمتار، يمشي على أربع، يكح، ويحاول أن يستعيد نَفَسَهُ ورباطة جأشه بينما كان شجارٌ عنيف ينفجر خلفه. في النهاية، تمكن من الوقوف على رجليه. استرعت الجلبة انتباه الناس. شبّان بجلد مُلمّع، ولون صدئ، برزوا من وهج الظهيرة، مثل معجزة، وتحلقوا حول العجوز. كانوا يلوّحون بعصي طويلة. يرسمون خطى راقصة. يقومون بقفزات عالية. يصيحون. تراجع المرشد إلى الوراء مرعوباً:

بدأ الأمر يسوء كثيراً، يا صديقي. هيا نهرب!

بعد عودتهِ إلى لواندا، وعلى طاولة إحدى الحانات، بين

جرعتين من الجعة الباردة جداً، سوف يلخص مونْتي تلك الهزيمة النكراء، باللجوء إلى صورة معبرة، على افتقارها للأناقة:

طُردنا مثل الكلاب. ابتلعتُ كثيراً من الغبار حتى أنني أصبحت منذئذ أتغوّط الطّوب.

حيث يتضّحُ اختفاءٌ (أو اختفاءان تقريباً) أو كيف، حسب قول ماركس: كلّ ما هو صُلب يتفكّكُ في الهواء

استيقظ ماغْنو موريرا مونْتي ذا صباح لا ضوء فيه، وهو يشعر كأنّه نهرٌ زاغ عن مصبّه. كان مطرٌ متثاقل يموت هناك في الخارج. زوجتُه تمشط شعرها، بلباس داخلي وخُفّين، جالسة فوق السرير.

انتهى كلّ شيء، قال مونْتي: لا أستطيع تحمل المزيد.

نظرت إليه ماريا كلارا بهدوء أُمٍّ:

هذا أحسن، يا حبيبي. الآن يمكننا أن نكون سعيدَين.

حدث ذلك سنة 2003. كانت التوجّهات الجديدة للحزب تثير غضبه. لم يكن يقبل بالتخلي عن مُثُله القديمة، يرفض الخضوع لاقتصاد السوق والتقرُّب من القوى الرأسمالية. غادر مصلحة الإعلام وأعاد تأهيل نفسه ليصبح مفتّشاً خاصّاً. كان العملاء يقصدونه بنصيحة من أصدقاء مشتركين، بحثاً عن معلومات تتعلّق بمقاولات منافسة، اختلاسات كبيرة، وأشخاص مختفين. كما

كانت تزوره نساء يائسات، يبحثن عن دلائل تُثبتُ خيانة أزواجهن، وأزواج غيورون، يعرضون عليه مبالغ مالية مهمّة كي يراقب زوجاتهم. كان مونْتي يرفض تقديم هذا النوع من الخدمات، التي يسمّيها، بازدراء، قضايا السرير. وينصحهم بزيارة زملاء آخرين.

ذات ظهيرة، ظهرت في مكتبه زوجة مقاول معروف. جلست، شبكت ثم فكّت ساقيها الرائعتين، مثل شارون سْتون في فيلم «**غريزة أساسية**»، ثم أطلقت تنهيدة:

أريدك أن تقتل زوجي.

كيف؟!

ببطء. ببطء شديد.

انحنى مونْتي فوق كرسيه. نظر إليها في صمت، لحظة طويلة، آملا أن يثنيها عن عزمها. لكن المرأة لم تخفض عينيها:

أعطيك مئة ألف دولار.

كان المفتّش يعرف المقاول. شخصٌ انتهازي لا ضمير له، بدأ يكدس جيوبه حتى أثناء الفترة الماركسية، يختلس، هنا وهنالك، من أموال الأشغال العمومية.

إنّه مال كثير مقابل خدمة زهيدة.

إذن، أنت تقبل؟

لماذا تريدين قتله؟

لقد سئمتُ خياناته. أريد أن أراه ميتاً. هل تقبل؟

لا.

لا تقبل؟

لا. لا أقبل. يمكن أن أقتله دون أي شعور بالذنب، بل بشيء من المتعة، خصوصاً إن كان ذلك ببطء، لكنك، يا سيدتي، لم تقدمي لي أي سبب وجيه.

ثم ذهبت المرأة إلى حال سبيلها، غاضبة. بعد بضعة أسابيع أعلنت الجرائد عن خبر قتل المقاول. قُتل بطلقات نارية وهو داخل سيارته، بعد أن صمد أمام محاولة اعتداء مسلّح.

إلى اليوم لا يستطيع مونْتي إخفاء ابتسامة خفيفة وهو يسمع تعليقاً عارضاً حول اختفاء سيمون بْيير مولامْبا. من يروا ابتسامته، يسيئوا تأويل معناها. يظنون أنه، ما دام ماركسياً عنيداً وارتيابياً بطبعه وتكوينه، يضحك من الخرافات الشعبية. في تلك الفترة، أغضبه فشل العملية. لم يكن يطيق الأخطاء، أخطاءه وأخطاء الغير، مع أن النتيجة النهائية لكل هذه البلبلة قد تنال رضاه. في النهاية، قدم

استقالته. وكان ذلك هو القشّة التي قسمتْ ظهْرَ بعيرِ صبْري الذي لا ينفذ، كما قال لأحد أصدقائه. انتهتْ الحرب. في فنادق لواندا كان يحتك مقاولون قادمون من البرتغال، والبرازيل، وأفريقيا الجنوبية، وإسرائيل، والصين، كلهم يبحثون عن مال سريع في بلد يعرف حركة إعادة بناء مجنونة. ومن هناك، من أعلى - من أحد المكاتب الفاخرة والمكيّفة- جاء أمر بإسكات صحفي يدعى دانييل بنْشيمول، متخصّص في قضايا الاختفاء. منذ أسابيع وبنْشيمول يسأل طيّارين، وميكانيكيين، ومقاولين، وعاهرات، وبائعين متجوّلين، وسياسيين في المعارضة ومن الحزب الحاكم، وأيّ نوع من الناس، حول اختفاء طائرة من نوع بوينغ 727. لقد اختفت الطائرة عند الفجر، 45 طناً من الحديد، ولا أحد يستطيع أن يفسر تلك المعجزة.

كلّ ما هو صُلب يتفكّكُ في الهواء، همهم مونْتي، وهو يُفكّر في ماركس، ويُفكّر، مثل ماركس، ليس في الطائرات، بل في النظام الرأسمالي، الذي كان، هناك في أنغولا، يزدهر مثل عفن بين الأنقاض، وأخذ يُعفّن كل شيء، ويُفْسد كل شيء، فيخلق، بذلك، نهايته الذاتية.

كان مونْتي يعرف الصحافي. يرى أنه رجل نزيه، بل ومثالي، في وسَطٍ فَضَّل فيه آخرون بيعَ أرواحهم للشيطان. كانت التحقيقات التي يوقعها، ويخفف من حدتها بلمسات سُخْريةٍ

خفيفة، تثير غيظ البورجوازية الجديدة وقلقها. يتحدر من يهود مغاربة استقروا في بنغيلا منذ أواسط القرن 19، واتخذوا منذئذ طبائع الخلاسيين والمسيحيين. كان جدُّه، ألبرْتو بنْشيمول، وهو طبيب محبوب جدّاً ويحظى بالاحترام، ينتمي إلى كوريبيكا، وهو الاسم الذي كانت تُعرف به الماسونيّة في أنغولا. ويأتي هذا المصطلح من لغة أوفيمبونْدو، بمعنى «تقدم» أو «عرض نفسه». أنشئت **الكوريبيكا** حوالي سنة 1860، بمحلات تجارية في بينغيلا، كاتومبيلا وموساميديش، ويبدو أنّها قد ألهمت عدة انتفاضات ذات طابع قومي. ورث الحفيد عن جده الاندفاع والصراحة، وهما صفتان تحظيان بتقدير مونْتي وإعجابه. عندما تلقى أمراً بإسكاته، لم يكتم المفتش غيظه:

إن هذا البلد يسير رأساً على عقب. الأتقياء يؤدّون ثمن خطايا المذنبين.

هذه الملاحظة، التي قالها بصوت مرتفع وحازم، أمام جنراليْن، لم تلق ترحيباً. استشاط واحد منها غضباً:

لقد تطوّر العالم. وعرف الحزب كيف يتطوّر مع تطوّر العالم، ويتجدّد، ولذلك نحن لا نزال هنا. عليك أن تفكّر في السيرورة التاريخية أيها الرفيق، وتدرس قليلاً. منذ كم سنة وأنت تشتغل معنا؟ منذ الأزل، أظن. وأظن أنه قد فات الأوان لتنقلب علينا.

هزّ الجنرال الثاني كتفَيه:

إن الرفيق مونْتي يحبّ ممارسة الاستفزاز. هكذا كان دائماً، شرطياً مستفزاً. مسألة أسلوب.

استسلم مونْتي للأمر. تنفيذ الأوامـر. العمل على تنفيذ الأوامر. في النهاية، حياته كلها تتلخصُ في هذا الأمر. أمَرَ بمراقبة الصحافي. اكتشف أنه كان يكتري كل سبت كوخاً شاطئياً في أحد المُستجمات الصغيرة، في بارا دو كوانزا، ليلتقي بزوجة أحد السياسيين المعروفين. يصل حوالي الساعة الرابعة. وتصل العشيقة ساعة بعد ذلك ولا تبقى طويلاً في الكوخ. أمّا الرجل، فيظلّ هناك حتّى الفجر، يشرب، ثم يتناول فطوره قبل أن يعود إلى البيت.

إن الحركات الروتينية هي سبب هلاك الفريسة.

كان أحد أقرب أصدقاء مونْتي مولعاً بجمع الأفاعي وأشجار النخيل. حلّ أُولي بولاك في لواندا شهوراً قليلة بعد الاستقلال، مُعاراً إلى الثورة الأنغولية من لدن المخابرات الألمانية. تزوج امرأة بنْغيلية، تصغره بخمسَ عشرة سنة، أنجبت له طفلين، وبعد انهيار جمهورية ألمانيا الديمقراطية، طلب الجنسية الأنغولية وحصل عليها. كان رجلاً كتوماً، قليل الكلام، يكسب رزقه من صنع ورود خزفية وبيعها. شيد بيتاً، قرب مورّو دوش فيادوش، له

شرفة دائرية واسعة مثل فناء، تطلّ كلّها تقريباً على المياه. وهناك، بينما كان البحرُ يبتلع الليلَ، استقبل صديقه، وجلسا معاً على أريكتين مريحتين من القصب. شربا جعة. تحدّثا عن الأوضاع في أنغولا، وعن غزو العراق، وعن فوضى المدينة. انتظرَ أولي حتى يهيمن الظلام على كلّ شيء:

إنك لم تأت إلى هنا لتتحدّث عن حالة حركة السير.

معك حقّ. أنا بحاجة إلى واحدة من أفاعيك.

كنتُ أعرف أنك ستأتي إلى هنا يوماً ما لتطلب مني شيئاً من هذا القبيل. إنني أحبّ الأفاعي. وهي ليست أسلحة.

أعرف ذلك. إنها آخر خدمة أطلبها منك. لقد سخر أناس كثيرون منك عندما قررت أن تبدأ حياة جديدة بكونك بائع ورود. كان قراراً جيداً.

يمكنك أن تفعل الشيء نفسه.

أبيع الورود؟ لا أفقه شيئاً في بيع الورود.

محلات ورود. مُعجَّنات. رياض أطفال. شركات نقل الأموات. كل شيء في هذا البلد في بدايته. أي تجارة يمكن أن تزدهر.

تجارة؟ ضحك مونْتي. ضحكة مريرة: ليست لي موهبة في استثمار المال. أُفلسُ أحسن تجارة. لن يكون لي أبداً مال كثير، وقد سلمتُ بذلك. حسناً، أعطني أفعى، وانس هذا الأمر.

في الليلة الموالية، قام أحد رجاله، يتحدر من مالينجي، قوي البنية، عصي على الفهم، يدعونه كيسونْدي، بزيارة المُستَجم الذي اعتاد أن ينزل فيه دانييل بنْشيمول. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، ومطر خفيف ينزل. قرع كيسوندي باب الكوخ رقم ستة. جاء خلاسي فارع وسيم، ليفتح الباب. يرتدي منامة حريرية، ذات لون أزرق معدنيّ وخطوط بيضاء. صوّب الشرطي المسدس نحوه، وهو يرفع في الوقت ذاته سبّابة يده اليسرى إلى شفتيه في حركة معبرة:

صه! ولا كلمة. لا أريد أن أصيبك بأذى. دفعَ الخلاسيَّ نحو الداخل وأجْلسَه فوق السرير. بعد ذلك، دون أن يتوقّف عن تهديده بالسلاح، أخرج من جيب معطفه علبة أقراص: ستبتلع قرصَين. سوف تستلقي وتنام مثل رضيع. وغدا سوف تستيقظ سعيداً، وستكون شيئاً ما أكثر فقراً فقط.

حسب الخطّة المرسومة، سيبتلع دانييل بنْشيمول القرصين ثم ينام بضع دقائق بعد ذلك. حينئذ، سيرتدي كيسونْدي قفّازين سميكين من الجلد، يُخْرج من حقيبة الظهر أفعى مرجانية، أهداها له العجوز أولي، يمسكها من رأسها ويأخذها لتلدغ الصحافي.

ثم يَخرُج بهدوء، دون أن يراه أحد، تاركاً الأفعى في الغرفة. في اليوم الموالي، ستكتشف عاملة النظافة الجثة، والحية، وعلبة الأقراص، ثم تطلق الإنذار. صياح كثير، وكثير من البكاء. خطب رائعة أثناء الجنازة. جريمة كاملة.

للأسف، رفض الخلاسي تنفيذ السيناريو. وبدل أن يبتلع القرصين وينام، تلفظ بكلمة بذيئة باللغة الفرنسية، رمى العلبة على الأرض، وكان يهمُّ بالنهوض حين أسقطه كيسوندي بضربة عنيفة. ظلّ الرجل ممدداً على السرير، مغمى عليه، بشفتَين مشقوقتَين، تنزفان دماً كثيراً. وتابع كيسوندي تنفيذ الخطّة. حشر القرصين في حنجرة الرجل، ثم لبس القفّازين، فتح الحقيبة، أمسك الأفعى من رأسها وجعلها تلدغ عنق الخلاسي. حينئذ حدث شيء آخر لم يكن متوقّعاً. تمسّكت الأفعى بضراوة بأنف الشرطي. أمسكها كيسوندي، جرّها، لكن الحيوان رفض أن يتركه. في النهاية، تمكّن من انتزاعها. ألقاها أرضاً، وداسها مرات ومرات. جلس فوق السرير مرتعشاً، ثم أخرج هاتفه النقّال من جيبه واتصل بمونْتي:

أيّها القائد، لدينا مشكلة.

كان مونْتي ينتظرهُ في السيارة عند باب المستجم، فهرع نحو الكوخ الشاطئي رقم ستة. كان الباب مغلقاً. قرعه قرعاً خفيفاً. لم يأت أحد ليفتح الباب. ثم قرع بقوة. فُتح الباب، فظهر دانييل

بنْشيمول بشعر غير مرتب، وملابس داخلية، ينضحُ صحة وعافية.

عفواً، هل أنت بخير يا سيدي؟

فرك الصحافي عينيه، خائفاً:

وهل ينبغي ألا أكون بخير؟

ابتكر مونْتي ذريعة ما على عجل. سمع أحد النزلاء صياحاً، ربّما تكون طيور الليل وهي تلاحق الطرائد، قطّة مثارة، بعض الكوابيس المتناثرة. اعتذر مرة أخرى، متمنياً بقية ليلة هادئة للصحافي الدهش ثم ابتعد. اتصل بكيسوندي:

يا إلهي، أين أقحمت نفسك، يا رجل؟

سمع أنيناً. وصوتاً يحتضر:

إنني أموت، أيها القائد. تعال بسرعة.

خطرت فكرة ملهمة لمونتي. جرى نحو الكوخ الشاطئي رقم تسعة. تأكد من أن الرقم المعدني قد انفصل عن الباب من جزئه الأعلى فأصبح يرسُم رقم ستة. دخل. كان كيسوندي جالساً قبالة الباب، بوجه منتفخ، وأنف أكثر انتفاخاً، وجفنَين متهدّلَين:

إنّني أموت، أيّها القائد، قال، وهو يرفع يديه، في حركة يأس متثاقلة: لقد لدغتني الأفعى.

ثم رأى مونْتي، هناك في الخلف، وجه شخص آخر، ينزف دماً من فمه:

تبّا لك، يا كيسوندي! وهذا الشخص؟! من يكون؟

توجه من فوره نحو معطف عُلِّقَ خلف كرسي، قرب طاولة كتابة. فتّش الجيوب، فوجد حافظة أوراق وجواز سفر:

فرنسي! يا لَها من مشكلة فظيعة يا كيسوندي! لقد قتلتَ فرنسياً.

أحضر سيّارة جيب. أقعد كيسونْدي في الكرسي الأمامي. وكان يتأهّب ليسحب الجثّة الهامدة لسيمون بيير من الكوخ، عندما جاء حارسٌ من حُرّاس المستجم وباغته.

حسناً! تنهد مونْتي: شيء من الحظّ وسط كلّ هذا النحس. كان الرجل قد اشتغل معه أثناء السنوات العصيبة. وقف وأدّى التحية: أيّها القائد!

ساعد مونْتي في وضع سيمون بيير فوق مقعد سيارة الجيب الخلفي. أحضر أغطية نظيفة. رتبا السرير. نظّفا الغرفة. وضعا الأفعى (أو ما تبقّى منها) في حقيبة ظهر كيسوندي. وهو يغادر، بعد أن قدم مئة دولار للحارس، حتى يساعده على نسيان ذلك الحادث، انتبه مونْتي إلى القبّعة الحريرية التي كان يرتديها

الفرنسي وهو يتجوّل في لواندا.

سوف آخذ هذه القبّعة. كما سآخذ شيئاً من الملابس. لا يختفي أحد وهو يرتدي منامة.

ترك كيسوندي في المستشفى العسكري. قاد سيّارته مدة ساعة حتى بلغ بقعة أرضية اقتناها، قبل سنوات، على أساس أن يبني هناك، بعيداً عن صخب لواندا، بيتاً خشبياً، مصبوغاً بالأزرق، يواجه فيه، رفقة زوجته، مرحلة الشيخوخة. ركن سيارة الجيب قرب شجرة باوباب ضخمة. كانت ليلة جميلة، يضيئها قمر نحاسي، دائري، مشدود كأنّه جلد طبل. أخرج رفشاً من صندوق السيارة، ثم نبش حفرة في التراب الرخو المبلّل بالمطر. فتذكّر أغنية قديمة للفنّان شيكو بُوارْكي[1]: **هذه الحفرة حيث أنت/ المقاسة شبراً شبراً/ إنّها أصغر تكلفة كانت من نصيبك في الحياة/ حجمها مناسب/ لا هي واسعة ولا عميقة/ إنّها قسمتك وحظّك من الضيعة الواسعة.** ثم استند إلى شجرة الباوباب وهو يدندن: **إنّها حفرة كبيرة/ لجسدك الراحل/ لكنّك ستكون فيها أكثر راحة/ ممّا كنت عليه في هذه الدنيا.**

في السنة السابعة من مرحلة دراسته في الثانوية، بمدينة

(1) مغنٍّ برازيلي (1944). يعدُّ من أهمّ الأصوات ضمن ما يعرف بموجة «البوسا نوفا» في الأغنية البرازيلية الحديثة. (المترجم)

هْوامْبو، التحق بفرقةٍ لمسرح الهواة أخرجت **موتَ سيفيرينا وحياتها**، وهي مسرحية من تأليف جواوْ كابرال دي ميلو نيتو[1] وموسيقى شيكو بْوارْكي. فغيرت تلك التجربة نظرته إلى العالم. فهم، وهو يجسّد فلاحاً من شمال شرق البرازيل، تناقضات النظام الاستعماري وظلمه. في أبريل من سنة 1974، كان في لشبونة، يدرس الحقوق، عندما امتلأت الشوارع بورود القرنفل الحمراء. اقتنى تذكرة طائرة، وعاد إلى لواندا ليصنع الثورة. مرت سنوات طويلة وهو لا يزال هناك يدندن **جنازة فلاح**[2]، بينما كان يَدفن، في أرض غريبة، كاتباً من دون حظ.

عاد إلى لواندا عند الساعة الرابعة صباحاً. كان يفكّر فيما ينبغي عليه أن يفعله بعد ذلك، وكيف يُسوِّغُ اختفاء الفرنسي، وهو يمرّ أمام سوق كيناشيشي، عندما خطرت له فكرة. ركن السيّارة. ترجّل. أخذ قبعة الميت وتوجّه نحو الجهة الخلفية لإحدى العمارات، قرب مرقص «كيثاسْ»، حيث ذهب سيمون تلك الليلة. وضع القبّعة على التراب الرطب. كان صبي ينام قرب حاوية قمامة. أيْقظَهُ بلطمة مفاجئة:

هل رأيت ما حدث؟!

---

(1) أديب ودبلوماسي برازيلي (1922-1999). (المترجم)

(2) أغنية معروفة يؤدّيها شيكو بْوارْكي. وعنوانُها في الأصل البرتغالي «Funeral de um Lavrador» (المترجم)

نهض الطفل بقفزة واحدة، وهو ناعس:

رأيتُ ماذا، يا رجل؟

هناك، حيث القبّعة! كان هناك خلاسي فارع، يتبوّل، ثم، فجأة، اختفى، ابتلعته الأرض. ولم يتبقّ منه غير القبعة.

التفت إليه الطفل بوجهه العريض الذي تغطّيه البثور، وفتح عينين واسعتين:

هكذا إذن، العجوز المسكين! أرأيت ذلك حقّاً؟!

نعم، رأيتُ ذلك بأمّ عينيّ. ابتلعته الأرض. في البداية، ظهر ضوء ضئيل، ثم لا شيء، بعد ذلك. القبّعة فقط.

ظل الاثنان معاً هناك، مدهوشَين، يتأمّلان القبّعة. وأثار دهشتهما انتباه ثلاثة أطفال آخرين. اقتربوا منهما متردّدين بين الخوف والتحدّي:

ماذا حدث، يا بايّاكو؟

واجههم بایاكو مبتهجاً بنصره. في الأيام القادمة سوف يستمعون إليه. وسوف يتحلّقون من حوله ليصغوا إليه. إنّ رجلاً يحكي حكاية جميلة هو ملك تقريباً.

أمواتُ سابالو

يوم حطّم سابالو الجدار، اعترفت له لودو بأكبر كابوس يؤرّقها: لقد قتلَت رجلاً بطلقة نارية ودفنَتهُ في السطح. استمع إليها الطفل دهِشاً:

لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد يا جدّة. هو نفسه لم يعد يتذكّر ذلك.

من هو؟

قتيلُكِ، هذا «الثّرينيتا». كانت أمّي تقول لي إنّ الأموات يعانون من فقدان الذاكرة. ويعانون أكثر من قلّة ذاكرة الأحياء. إنك تتذكّرينه كلّ يوم، وهذا أمر جيد. ينبغي أن تتذكّريه وأنت تضحكين، وترقصين. عليك أن تتحدّثي إلى «الثّرينيتا» كما تتحدّثين إلى شبح. الحديث يُنزِلُ السكينة على الموتى.

وهل تعلّمت هذا أيضًا من أمّك؟

نعم. ماتت أمي وأنا طفل صغير. بقيت وحدي. أتحدّث معها، لكنّي أفتقد يديها اللتينِ كانت ترعاني بهما.

ولكنك ما زلت طفلاً.

لا أستطيع، يا جدّة. كيف لي أن أكون طفلاً بعيداً عن يدي أمي؟

أنا أعطيك يديّ.

لم تحضن لودو أحداً بين ذراعيها منذ وقت طويل. فنسيت ممارسة هذا الفعل قليلاً. اضطرّ سابالو ليرفع ذراعَيها، ثم قام واتخذ لنفسه عُشّاً بين أحضانها. ولم يحدثها إلا بعد ذلك عن أمّه، ممرضة قتُلت لأنها كانت تحارب تجارة الأعضاء المأخوذة من الجثث البشرية. في المستشفى الذي كانت تشتغل فيه، في إحدى مدن الشمال، كان يحدث أحياناً أن تختفي بعض الجثث. كان بعض الموظّفين يبيعون الأعضاء البشرية إلى السحرة المشعوذين، ويضاعفون بذلك أجرهم الزهيد خمس مرات. انتفضت فيلومينا، أمّ سابالو، أولاً، ضد الموظّفين الفاسدين، ثم انتقلت، بعد ذلك، لتحارب السحرة المشعوذين. فبدأت تواجه بعض المضايقات. داهمتها سيارة وهي تغادر عملها، فكادت تدعسها. تعرض بيتها للسرقة عدة مرات. تركوا تعاويذ مسمّرة على باب بيتها، وأوراقاً بها شتائم وتهديدات. لم يثنها ذلك عن شيء. ذا صباح، في السوق، اقترب منها رجل وطعنها بسكين في بطنها. رأى سابالو كيف سقطت أمّه على الأرض. سمع صوتها، الذي لم يكن سوى نَفَس:

اهرب، يا سابالو!

جاءت فيلومينا من ساوْ تومي، حاملاً، وقد اجتذبَتها عينان لامعتان، وكتفان عريضتان، وضحكة عفوية، وصوت دافئ لضابط شابّ في صفوف القوّات المسلّحة الأنغولية. أخذها الضابط من لواندا إلى تلك المدينة، عاش معها ثمانية أشهر، حضر ولادة سابالو، ذهب في مهمّة إلى الجنوب، كان من المفروض أن تدوم بضعة أيام، لكنّه لم يعد قطّ.

ركض الطفلُ عَبرَ السوق، يُسقط في طريقه سلات من الفواكه، وصناديق من الجعة، وأقفاصاً قصبية تعجّ بالطيور المزقزقة. ثم ارتفع من خلفه صياحُ تمرّد عنيف. لم يتوقّف سابالو إلا أمام بيته، وظلّ هناك، جامداً، لا يعرف ما يفعله. حينئذ انفتح البابُ، فظهر رجل مقوّس الظهر، يرتدي ملابس سوداء، وانقض عليه كما ينقض الطائر على فريسته. تفاداهُ الطفل، تدحرج فوق الرصيف المزفت، نهض، ودون أن ينظر إلى الوراء، استأنف الجري.

وافق سائقُ شاحنةٍ على أخذه إلى لواندا. فحكى له سابالو الحقيقة: ماتت أمّه واختفى أبوه. وهو يأمل أن يحدّد مكان أحد أفراد عائلته، هناك في العاصمة. كان يعرف اسم والده، مارْسْيانو بارّوزو، الذي كان قائداً في صفوف القوّات المسلّحة، واختفى أثناء مهمّة في مكان ما في الجنوب. وكان يعرف أيضاً أن والده

يتحدّر من لواندا. وكان جدّاهُ من جهة والده يسكنان في ساحة كيناشيشي. يتذكّر أن والدته كانت تذكر هذا الاسم. وحكت له أنه، هناك، في تلك الساحة، كانت تنمو بحيرة ذات مياه داكنة، تسكنها جنّية بحر.

تركه سائق الشاحنة في كيناشيشي. وضع في حقيبته رزمة من الأوراق المالية:

هذه النقود ستكفيك لتستأجر غرفة مدة أسبوع، تأكل وتشرب. وأتمنّى أن تجد والدك أثناء ذلك.

أخذ الطفل يتسكع في تلك الجهة، مهموماً، ساعات وساعات. توجّه في البداية نحو شرطي سمين، يقف مسمّراً أمام باب أحد البنوك.

هل تعرف القائد بارّوزو، يا سيدي؟

حدجه الشرطي بعينَين صغيرتَين تلمعان غضباً:

تحرّك من هنا، أيّها المتسكّع، هيّا تحرّك!

رقّت بائعةٌ متجوّلة لحاله. توقّفت لحظة لتستمع إليه. ونادت بائعات أخريات. كانت واحدة منهنّ تذكر عجوزاً يدعى أداوْ بارّوزو، كان يسكن هناك، في عمارة كوكا. وتوفي منذ سنوات.

كان الليل قد بدأ ينشر ظلامه عندما غلبه الجوع ودفعه نحو حانة صغيرة. طلب حساء وقنينة كوكا كولا. عندما خرج، اعترض سبيله طفل ذو وجه منتفخ، وبشرة غير سليمة، وألقاه على الحائط:

اسمي بايّاكو، أيّها الطفل. أنا ملكُ كيناشيشي. ثم أشار إلى تمثال امرأة، وسط الحديقة: تلك سيّدتي. إنها الملكةُ جينْغا. وأنا الملكُ جينْغاوْ. هل معك مال؟

انكمش سابالو باكياً. برز طفلان آخران من العتمة، ثم وقفا إلى جانبي بايّاكو، ليمنعا سابالو من الهروب. كانا متشابهَين، قصيرَين وممتلئَين، كأنهما كلبان من نوع بيتْبول، بعيون لا ضوء فيها وابتسامة شاردة ترتسم على شفاه واضحة الخطوط. وضع سابالو يده في جيبه وأراهم النقود. انتزع منه بايّاكو الأوراق المالية.

حسناً، يا صاح. لقد تصرّفت كما ينبغي. يمكنك أن تقضي هذه الليلة معنا، هناك بين الصناديق. نحن نحميك. غداً تبدأ العمل. ما اسمك؟

سابالو.

تشرفنا بمعرفتك، سابالو. هذا هو دْيوغو!

أيهما؟

كلاهما. دْيوغو اثنان.

استغرق سابالو وقتاً طويلاً قبل أن يفهم أن الجسدين يشكلان شخصاً واحداً. يتحركان في انسجام، أي أنهما ينفعلانَ ويهتزّان في تناغم، كأنهما سبّاحان متزامنان. ينطقان في الوقت ذاته الكلمات المتناثرة نفسها. ويطلقان الضحكات نفسها. يذرفان الدموع نفسها. يُغمى على النساء الحوامل حين تريانهما. ينفر منهما الأطفال. لكن دْيوغو لا يبدو أن لديه أيّ ميل نحو الشرّ. له طيبة أشجار البيتانْغا، التي تثمر في الشمس، على أنها محتشمة ونادرة، نتيجة الإهمال أكثر من عزيمة الفكر الواضحة. كان بايّاكو يكسب دخلاً وهو يجعل دْيوغو يغنّي ويرقص الكودورو[1] أمام الفنادق الكبرى. فينبهر الأجانب للعرض، ويتركون إكراميات سخية. وكتب صحافي برتغالي مقالة قصيرة عن فنّان الكودورو، مع صورة لدْيوغو وهو يعانق بايّاكو. فكان هذا الأخير دائماً يحمل معه قصاصة المقالة في جيب سرواله. ويشهرها بفخر.

أنا مدير أعمال الشوارع.

بدأ سابالو العمل بغسل السيارات. كان يسلم المال إلى بايّاكو. فيشتري مدير أعمال الشوارع الطعام للجميع. ويشتري لنفسه أيضاً سجائر وجعّة. أحياناً يفرط في الشرب، فيسرف في

(1) نوع موسيقيّ تطوّر في أنغولا أثناء سنوات الثمانينيات من القرن العشرين. (المترجم)

الكلام. يتفلسف:

الحقيقة هي حذاء من دون نعل لمن لا يُحسنُ الكذب.

كان سريع الغضب. ذات مرة، ترك دْيوغو أطفالاً آخرين ليسرقوا مذياعاً صغيراً يشتغل بالبطاريات تمكّن بايّاكو من أن يختلسه من المقعد الخلفي لسيارة جيب متوقفة في زحمة السير. ليْلَتها أشعل بايّاكو ناراً كبيرة قرب البحيرة. أحمى صفيحة حديد حتى صارت حمراء كالجمر. نادى دْيوغو، ثم أمسك يديه ووضعها على الصفيحة. فأخذ جَسَدا دْيوغو يتلويّان معاً يائسَين. وأطلق الفمان عويلاً حاداً. تقيّأ سابالو، وقد شعر بالغثيان من رائحة اللحم المحترق ويأس دْيوغو.

أنت ضعيف، بصق بايّاكو قائلاً: لن تكون ملكاً أبداً.

ومنذئذٍ، حتّى يجعل منه رجلاً، على الأقلّ رجلاً، مادام أنه لن يتمكّن أبداً من أن يحوله إلى ملك، بدأ يأخذه معه في عمليات سرقة قصيرة. كان ذلك يحدث في نهاية المساء، عندما يعود البورجوازيون إلى بيوتهم، داخل سيّاراتهم، يعانون ساعات متتالية في زحمة السير. كان هناك دائماً تَعِسٌ ما، يفتح نوافذ السيارة، إمّا للتهوية، أو لأن المكيّف لا يشتغل، أو لينادي أحدًا ما. حينئذٍ يبرز بايّاكو من العتمة، ووجهه مُثقّب بالبثور، ويضع قطعة

زجاج على عنقه. يُدْخلُ سابالو يده من النافذة ويأخذ الحافظة، والساعة اليدوية، وأيّ شيء ذي قيمة في متناوله. بعد ذلك، يهربان معاً بسرعة كبيرة وسط فوضى السيارات، وصياح الناس بالتهديدات، وغضب المنبهات، وشيء من الطلقات النارية في بعض الحالات.

كان بايّاكو هو من خطرت له فكرة تسلّق السَّقالات. فأعطى أوامره إلى سابالو:

أنت ستصعد، وسترى إن كانت هناك أي نافذة مفتوحة وتدخل دون ضجيج. أنا لا أستطيع ذلك. العلُوّ يصيبني بالدوار. ثم إنه كلّما صعدتُ إلى أعلى، شعرتُ أنّني قصير.

صعد سابالو حتّى بلغ السطح. رأى الدجاج الميّت. نزل فاكتشف شقّة في حالة جدّ متدهورة، من دون أثاث، ومن دون أبواب ولا أرضية خشبية. أفزعَته الجدرانُ المغطاة بكتابات ورسوم غريبة. فتراجع إلى الـوراء ببطء نحو السلالم. قال لبايّاكو إنه لا يوجد أي شيء. لكنه في الليلة الموالية عاد وتسلّق السَّقالات مرة أخرى. فجازف هذه المرة وجال في باقي أجزاء الشقّة. في الغرفة، رأى العجوز تنام فوق سرير. تضع ملابسها في ركن من الغرفة. المطبخُ هو المكان الوحيد الذي كان يبدو عادياً، إلا من جدرانه المُسْودّة من أثر الدخان. كانت هناك مائدة

صُلبة، ذات غطاء رخامي، فرنٌ وثلاجة. أخرج الطفل قطعة خبز من جيبه؛ لأنه دائماً يحمل خبزاً في جيبه، ووضعها فوق المائدة. في أحد الجرارات، اكتشف مجموعة من أدوات المائدة الفضّية. وضعها في حقيبة ظهره وخرج. سلّم أدوات المائدة إلى بايّاكو. انبهر الشاب لذلك، فأطلق صفيراً:

عمل رائع، يا ولد. ألم تجد مالاً، مجوهرات؟

أنكر سابالو الأمر. هناك في الأعلى، ثمّة فقر أشدّ من هنا في شوارع لواندا. فلم يوافقه بايّاكو الرأي.

سوف تعود غداً.

اكتفى سابالو بالموافقة بحركة من رأسه. طلب مالاً ليشتري الخبز. وضع في حقيبة ظهره خبزاً، وعلبة زبدة، وقنينة كوكا كولا ثم تسلّق العمارة. ترك كلّ شيء فوق مائدة المطبخ. حين رآه يرجع بيدَين فارغتَين، انفجر بايّاكو. انهال عليه بالضرب والركل. أسقطه. وظلّ يوجّه ضربات إلى رأسه، وعنقه، إلى أن أمسكه دْيوغو من ذراعيه وأبعده. في الليلة الموالية، عاد سابالو ليتسلّق العمارة حتى السطح. فوجد لودو ممدّدة على الأرض، هذه المرة. نزل جدَّ مفزوع. طلب من بايّاكو أن يسمح له بشراء بعض الأدوية. لقد سقطت العجوز. ويبدو أن حالتها سيّئة. فلم

يستمع إليه الآخر حتّى:

إنني لا أرى جناحَيك يا سابالو. ليست لديك أجنحة، ولستَ ملاكاً. اترك العجوز لتموت.

لاذ سابالو بالصمت. رافق بايّاكو ودْيوغو إلى سوق روكي سانتيرو. باعوا أدوات المائدة. وهناك تناولوا الغداء، في حانة تنتصب معلّقة على أعمدة مثل برج بابل فوق فوضى السوق. انتظر سابالو حتى ينتهي بايّاكو من شرب جعته، ثم تجرّأ وسأله إن كان يمكن أن يحتفظ بشيء من المال. فهو، في نهاية الأمر، من جلب أدوات المائدة. ثارت حفيظة الآخر:

لماذا تريد مالاً؟ كل ما تحتاجه أوفره لك. أنا بمثابة والدك.

دعني فقط أرى المال. لم أر قطّ كلّ هذا الكمّ من النقود.

فوضع بايّاكو بين يديه رزمة سميكة من الأوراق النقدية. أمسكها سابالو. ثم قفز من السطح فوق الرمل. نهض والدّمُ في ركبتيه. أطلق ساقَيه للريح، وراح يتسلّل بين الحشد، بينما كان بايّاكو يُطلّ من الدرابزين ويصيح بالشتائم والتهديدات:

لصّ! ابن العاهرة. سوف أقتلك.

اشترى سابالو أدوية وطعاماً. كان الظلام قد بدأ ينزل حين عاد

إلى كيناشيشي. رأى بايّاكو جالساً رفقة دْيوغو قرب السَّقالات. اقترب من طفل آخر ووضع خمس أوراق مالية في يده:

قل لبايّاكو إنّني في انتظاره في حانة فيرْدي.

ابتعد الطفل مهرولاً، وسلَّم الرسالة. نهض بايّاكو بقفزة واحدة وانطلق، رفقة دْيوغو، في الاتجاه المعاكس. تسلّق سابالو السَّقالات، ولم يأخذ نَفَساً إلا عندما بلغ السطح.

دانييل بنْشيمول يحقّق في اختفاء لودو

قرأ دانييل بنْشيمول رسالة ماريا دا بييدادي لورينْسو مرّتين. اتصل بأحد أصدقاء والده، عالمٌ جيولوجيّ كرّس حياته كلّها للتنقيب عن الماس. كان العجوز فيتالينو يذكر أورلانْدو جيداً:

رجل شهم، ومزاج صعب. قاسٍ، جافّ، ومتصلّب على الدوام، كما لو أنه يرتدي قميصاً من المسامير. كانوا يسمّونه بيكو أو «الرَّزَّة». لا أحد يريد أن يشرب قهوة برفقته. لا أصدقاء له. اختفى قبيل الاستقلال. اغتنم الفوضى، فدسّ بضعة أحجار في جيبه، وهرب إلى البرازيل.

بحث دانييل في الإنترنيت. وجد مئات الأشخاص ممّن يحملون اسم أورلانْدو بيريرا دوس سانتوس. ضيّع ساعات وراء إشارة، أو أي إحالة، تسمح بربط الاسم بالشخص الذي يبحث عنه. دون جدوى. بدا له ذلك أمراً غريباً. رجل مثل أورلانْدو، يعيش منذ أكثر من عشرين سنة في البرازيل، أو أيّ بلد آخر غير أفغانستان، أو السودان، أو بوتان، لا بدّ أن يترك أثراً في الشبكة الافتراضية الكبيرة.

اتصل مرة أخرى بفيتالينو:

هل كان لأورلانْدو هذا عائلة في أنغولا؟

أكيد. هو من كاتيتي.

كاتيتي؟! كنتُ أظنّه برتغالياً.

كلا، إنّه كاتيتي قحّ. سحنة فاتحة. بعد أحداث 25 أبريل، أصبح يُلحّ على تذكيرنا بأصله. يفتخر بأنه عاش مع مانغوكسي[1]. أتتصورُ ذلك؟! شخص لم يرفع صوته قطّ ضد الاستعمار طوال كلّ تلك السنوات! ينبغي أن أضيف، كي أقول الحقيقة، إنه لم يتواطأ قطّ مع العنصريين، لم يفعل ذلك قطّ، وكان دائماً منصفاً. يعامل البيض والسود بالعجرفة نفسها.

وماذا عن عائلته؟

عائلته. أظنّ أنه كان ابن عمّ فيتورينو غافياوْ.

الشاعر؟

متسكّع. سمّه ما شئتَ.

كان بنْشيمول يعرف أين يجد فيتورينو غافياوْ. قطع الشارع وولج حانة «بيكير». كانت الحانة خالية تقريباً في تلك الساعة.

(1) هو أنطونيو أغوستينيو نيتو مانغوكسي (1922-1979). زعيم الحركة الشعبية لتحرير أنغولا وأول رئيس للجمهورية بين 1975 و 1979. (المترجم)

في طاولة منزوية بعض الشيء، كان أربعة مسنّين يلعبون الورق، ويتحدّثون بصوت مرتفع. سكتوا عندما رأوه يدخل:

حذار! قال أحدهم، وهو يتظاهر بالهمس، لكن بطريقة تسمح للصحافي بسماع كلامه: ها قد وصلت صحافة النظام. صوتُ السيد. أذنا السيد.

غضب بنْشيمول:

إن كنتُ أنا صوت النظام، فأنتم غائطُه.

نهض من همس بالكلام:

لا تغضب، أيها الرفيق. تعال واشرب جعة.

فترك فيتورينو غافْياوْ ابتسامة مريرة تنفلت من شفتيه:

نحن الكورس الإغريقي. صوتُ الضمير الوطني. وهذا ما نمثله. نجلس هنا، في العتمة، ونعلق على سيرورة المأساة. نطلق إنذارات لا يسمعها أحد.

جرّدَهُ صلعٌ مهين من شعره القوي المرتب على طريقة جيمي هندْريكْس، حين أعلن في سنوات الستينيات، من باريس، عن زُنوجته. هكذا، بصلعته الملساء، اللامعة، قد يعده الناس أبيض ولو في السويد. حسناً، ربما ليس في السويد. ثم رفع صوته،

مستفسراً:

ما هي الأخبار؟

سحب الصحافي كرسياً، وقعد:

هل عرفت شخصاً يدعى أورلانْدو بيريرا دوس سانتوس، مهندس مناجم؟

تردد غافياوْ، وشحب جداً:

إنه ابن عمي. ابن عمّ من الدرجة الأولى. هل مات؟

لا أعرف. هل يفيدك موتُه في أي شيء؟

اختفى هذا الشخص لحظة الاستقلال. يقولون إنه أخذ معه كمية من أحجار الماس.

أتظن أنه ما زال يذكرك؟

كنا أصدقاء. لم يدهشني صمتُ «بيكو» في السنوات الأولى. شخصياً، لو سرقتُ كمية من أحجار الماس لتمنيتُ أيضاً أن ينساني الآخرون. طاله النسيان. نسيه كل الناس منذ مدة طويلة. لماذا تطرح علي هذه الأسئلة؟

أراهُ الصحافيُّ رسالة ماريا دا بييدادي لورينْسو. كان غافياوْ

يذكر لودو. كان دائماً يجد أنها مجنونة نوعاً ما. والآن بات يفهم السبب. تَذكَّر زيارته إلى شقة ابن العم، في «عمارة المحسودين». وتذكر ذلك حماس تلك الأيام التي سبقت الاستقلال.

لو كنتُ أعرف ما سيؤول إليه كل هذا لبقيتُ في باريس.

وماذا كنت ستفعل هناك في باريس؟

لا شيء! تنهّد غافياوْ: لا شيء، كما هنا. لكن، على الأقل كنت سأفعل ذلك بأناقة. كنتُ سأعيش متسكّعاً.

في تلك الظهيرة، وبعد أن غادر الجريدة، صعد دانييل مشياً على الأقدام حتى بلغ كيناشيشي. كانت «عمارة المحسودين» لا تزال تبدو في حالة سيّئة جدّاً. لكن بهو المدخل صُبغ حديثاً، وتفوح منه رائحة هواء نقي ومرح. كان حارس يراقب المصعد.

هل يشتغل؟ سأله الصحافي.

ابتسم الرجل بفخر:

دائماً تقريباً، أيها القائد، دائماً تقريباً!

طلب من دانييل أن يقدم هويته وحينئذ طلب المصعد. دخل الصحافي. صعد حتى بلغ الطابق الحادي عشر. ثم غادر المصعد. توقف لحظة، مدهوشاً أمام نظافة الجدران وبريق الأرضية. باب

واحدٌ كان نشازاً وسط كل ذلك، إنه باب الشقة رقم «د». كانت به خدوش ويظهر عليه ثقب، في منتصف علوه، كأنما أصابته رصاصة بجرح. ضغط الصحافي على الجرس. لم يسمع أي ضجيج. فقرع الباب ثلاث مرات، وبقوة. جاء طفل وفتح الباب. عينان واسعتان، وتعابير نضج دهشة لدى شخص صغير مثله.

أهلاً، حياه الصحافي: هل تسكن هنا؟

نعم أسكن هنا، يا سيدي. أنا وجدتي.

هل يمكن أن أتحدث مع جدتك؟

لا.

دعني أتحدث معها، يا ولد.

سمع دانييل صوتاً واهناً أجشّ، ثم رأى بعد ذلك سيدة تظهر جِدّ شاحبة، تجرجر إحدى ساقيها، وشعرُها الأشهب ينقسم إلى ضفيرتين سميكتين:

أنا لودوفيكا فيرْنانْدشْ، يا سيدي. ماذا تريد؟

موتْياتي بْلوزْ (2)

رأى العجوزُ كيف انتصب شهر يناير وانغلق حول الكوفالي مثل فخّ. في البداية، كان الجفاف، فهلكت ثيران كثيرة. وكلّما كانوا يتقدّمون نحو الشرق، ويتسلّقون الجبال، كان الهواء يصير لطيفاً، والأرض تصبح أكثر برودة ونعومة. وجدوا شيئاً من الكلأ، وصهاريج وَحِلَة، ثم تابعوا سيرهم، يفكّون بصعوبة رموز الخُضرة الباهتة. ثم برزت الحواجز فجأة، كأنّها شتيمة، تهينُ الجانب المضيء من الصباح. توقفت القطعان. واحتشد الشبان في مجموعات متوترة، يصيحون نحو السماء بعبارات قصيرة من الدهشة والعصيان. اقترب الابن أنطونيو. كان يتصبب عرقاً. وجهُهُ الوسيم، بأنفه المنتصب، وذقنه الواضح، كان يحترق من الجهد والغضب:

ما العملُ؟

جلس العجوز. كان الحاجز يمتد على مئات الأمتار. يبرُزُ يميناً، بين ياقة من الشوك، يسمونها هناك أظافر القط، ويختفي، يساراً، في كابوس أكثر كثافة، وأكثر انتصاباً، يتشكل من نباتات البيسابّاش، والصبار على شكل شموع، ونباتات الموتياتي. وخلف الحاجز، كانت تنفتح طريق لينة من الحصى الأبيض

حيث كان من المفترض، في تلك الفترة من السنة، أن يجري جدول صغير.

اختار جيريمياش الجلاد غُصيْن، ثم سوّى الرمل وأخذ يكتب. انحنى أنطونيو إلى جانبه.

في تلك الظهيرة، حطموا الحاجز، ومروا إلى الجهة الأخرى. وجدوا شيئاً من الماء وبعض الكلأ الجيد. بدأت الريح تهب، وهي تجرف ظلالاً ثقيلة، كما لو أنها تجلب الليل أسمالاً، وتنتزعه من صحراء قصيّة. سمعوا هدير محرك ورأوا سيارة جيب تبرز من وسط العتمة والغبار، وعلى متنها ستة رجال مسلحين. كان واحد منهم خلاسياً نحيلاً، بهيئة يرثى لها كأنه قط مبلل، ثم قفز من السيارة وتقدم نحوهم يلوح ببندقية من نوع AK 47 في يده اليمنى.

كان يصيح بالبرتغالية ولغة نكومبي. بعض الجمل تصلُ ممزقة مع الريح إلى أسماع جيريمياش:

هذه الأرض لها من يملكها! اخرجوا! اخرجوا حالاً!

رفع العجوز يده اليمنى محاولاً أن يكبح اندفاع الشبّان. لكن ذلك كان متأخّراً. قام شاب أهيف، لم يتزوج إلا أخيراً، ويسمّونه زيبْرا، ورمى رمحاً قصيراً. رسم السلاح قطْعاً إهْليجياً رائعاً جداً

في السماء الممتلئة رعباً، ثم انغرس بضربة حادة، على بُعد سنتيمترات من حذاء الخلاسي.

ثم رانت لحظة صمت قصيرة. حتّى الريح بدا وكأنه قد هدأ. بعد ذلك، رفع الحارس سلاحه وأطلق الرصاص.

تحت ضوء الزوال المحرق، كان من المحتمل أن ينتهي كلّ شيء في حمّام من دم. كان الرجال الستة مسلّحين. بعض الرعاة مرّوا من الخدمة العسكرية وكانوا يشهرون بدورهم أسلحة نارية. لكن في تلك الساعة، بينما كانت الريح تسوط الظلام، بعض الرصاصات فقط هي التي أصابت الأجساد. وأُصيب زيبْرا بجرح خفيف في ذراعه. والخلاسي في رجله. ثم انسحب الطرفان، لكن، وسط الفوضى. ظلّت عدة بقرات في الخلف.

في الليلة الموالية، قامت مجموعة من الشبان، يتزعمهم زيبْرا، بالدخول مرة أخرى إلى المزرعة. عادوا بجزء من القطيع التائه، مع نصف دزينة من البقرات، وشابّ يبلغ أربعة عشر عاماً، كان، حسب زيبْرا، هو من يلاحقهم على متن جواد، وهو يصيح مثل المجنون.

أصيب جيريمياش بالرعب. إن سرقة القطعان تُعدّ من التقاليد، وكثيراً ما تحدّث. في تلك المناسبة كانت بمنزلة مقايضة. لكن،

اختطاف الشابّ قد يجلب لهم بعض المشكلات. أمر بإحضاره. كان مراهقاً بعينين جدّ خضراوين، وشعر جموح، شدّه على هيئة ذيل حصان. كان من تلك الوجوه التي يسمّونه في أنغولا «الحدود المندثرة»؛ لأنهم يبدون بيضاً في واضحة النهار، وفي العتمة يظهر أنّهم في الحقيقة خلاسيون. ومن هنا يُستنتج، أحياناً، أن بعض الناس تكون معرفتهم أحسنَ بعيداً عن الضوء. حدّقَ بالعجوز بازدراء:

سوف يقتلُك جدّي!

ضحك جيريمياش. ثم كتب على الرمل:

لقد متُّ مرة. الموتُ مرة ثانية هو أقلّ صعوبة.

غمغم المراهق شيئاً ما دهِشاً. ثم بدأ يبكي:

اسمي أنْدْري روسو، يا سيّدي، وأنا حفيد الجنرال روسّو. قل لهم ألا يصيبوني بأذى. دعوني أذهب لحالي. احْتفِظوا بالبقرات، ودعوني أذهب لحالي.

بذل العجوز قصارى جهده لإقناع الشبان بتحرير أنْدْري. وكان هؤلاء يشترطون إعادة البقرات وضمان عبور المزرعة بحثاً عن مراعٍ أحسن. وكانوا في تلك المرحلة منذ ثلاثة أيام، عندما رأى جيريمياش الماضي مقرفصاً أمامه. لقد شاخ، وهو

ما لا يحدث دائماً، لأن هناك من أشكال الماضي ما يعبر القرون دون أن يفسده الزمن. لكن ذلك لم يكن هو حال هذا الماضي: لقد ساء حاله، تجعّد وجهه وفقد ما بقي له من شعر لونه تقريباً. أمّا الصوتُ، فظلّ قوياً وحازماً. لحظتها، وهو يقف أمام مونْتي، ويراه ينهض مندفعاً ومنجذباً إلى الوراء، وهو يراه يجري، يلاحقه الرعاة الشبان، تَذَكَّر جيريمياش الجلّاد مرة أخرى الأحجارَ الماسيّة لأورْلانْدو بيريرا دوس سانتوشْ.

مكتبة
t.me/t_pdf

مصيرُ نهر كوبانغو الغريب

كان ناصر الإنجيلي يشعر بالسعادة في وظيفته الجديدة. يرتدي بزّة زرقاء، نظيفة للغاية، ويقضي معظم أوقاته جالساً إلى طاولة مكتب، يقرأ، بينما يراقب الباب بطرف العين. أصبح مولعاً بالقراءة أثناء السنوات التي قضاها وراء القضبان، في سجن ساوْ باوْلو بمدينة لوانْدا. بعد إطلاق سراحه، اشتغل صانعاً حرفياً، ينحت الأقنعة في سوق الكيلومتر 17. ذات ظهيرة، التقى السُّوبا الصغير، الذي اقتسم معه زنزانة، فدعاه هذا الأخير ليشتغل بوابا في «عمارة المحسودين» في حي كيناشيشي، الذي انتقل ليسكن فيه مؤخراً.

إنها وظيفة مريحة، قال له المقاول مُطَمْئناً: بإمكانك أن تقرأ.

وبذلك أقنعه. في ذلك الصباح، كان ناصر الإنجيلي يعيد قراءة **مغامرات روبينسون كروزو** للمرة السابعة، حين انتبه إلى طفل في غاية القبح، ذي وجه مثقب بالبثور، يتسكع عند باب العمارة. أَشَّرَ الصفحة، ووضع الكتاب في الجرار. نهض ومشى حتى بلغ الباب.

إيه، أنت، يا صاحب الوجه المغطّى بالبثور. ماذا تريد من عمارتي؟

اقترب منه الطفل، خائفاً:

هل تعرف إن كان يسكن هنا أحد الأطفال؟

هناك كثيرٌ من الأطفال، يا ولد. هذه العمارة مدينة كبيرة.

إنه طفل في السابعة من عمره. اسمه سابالو.

آه، أجل! سابالو، أعرف من يكون. الطابق الحادي عشر. إنه لطيف جداً. يعيش مع جدّته، لكنّي لم أرها قطّ. إنها لا تبرحُ البيت.

لحظتها، ظهر شخصان آخران. فزع ناصر وهو يراهما يعبران الشارع، يرتديان معاً ملابس سوداء، كما لو أنهما يبرزان من إحدى مغامرات **كورتو مالتيز**. كان أكبرهما يضع على رأسه قبّعة موكوبالية، ذات شرائط حمراء، وياقة في العنق، وأساور واسعة في الذراعين. ينتعل نعلاً جلدياً بالياً، يكشف عن قدمَين كبيرتَين، مشقّقتَين، يغطّيهما الغبار. وإلى جانب الشخص المسنّ، كان هناك شابّ فارع وضامر يتحرّك كمن يقوم بعرض فوق منصّة. يضع بدوره أساور وقلائد، لكنّها كانت تبدو عليه طبيعية تماماً كما تبدو تلك القبّعة المستديرة التي تغطّي رأسه. تقدّم الرجلان بحزم نحو ناصر. هيّا بنا إلى أعلى، قال الشابّ، وهو يزيح البوّاب في الوقت ذاته بحركة انزعاج. لقد تلقّى ناصر أوامر صارمة بألا يترك

أحداً ليصعد دون أن يأخذ منه أولاً رقم بطاقة الهُوية أو رخصة السياقة. كان يتأهّب ليعترض طريق الشخصين، عندما راوغه بايّاكو وانطلق يصعد السلالم. تبعه البوّاب. طلب جيريمياش وابنه المصعد. ولجاه وصعدا. عندما غادرا في الطابق الحادي عشر، شعر العجوز بدُوار. كان ينقصه الهواء. استند لحظةً إلى الجدار. رأى دانييل بنْشيمول يُحيّي لودو، فتعرَّفها، مع أنه لم يرها قطّ.

عندي رسالة إليك، قال دانييل: ربّما يستحسن أن ندخل، تجلسين ثم نتحدّث. أثناء ذلك، كان ماغنو موريرا مونْتي يلج العمارة. ولمَّا لم يجد البواب، فقد طلب المصعد وصعد. سمع، وهو يصعد، صيحات ناصر وهو يلاحق بايّاكو:

انزل. أنت لا يمكنك أن تصعد!

كما شعر السوبا الصغير، الذي كان في البيت، يحلق ذقنه، بالخوف من صيحات البواب. غسل وجهه، ارتدى سروالاً وذهب إلى الباب يتطلّع إلى الجلبة. مرّ بايّاكو من أمامه يجري، دفع الرعاة، ثم توقّف على بعد بضعة أمتار من دانييل بنْشيمول. بعد ذلك، فتح باب المصعد، فوجد السجين السابق نفسه، مدهوشاً، وجهاً لوجه أمام الرجل الذي استنطقه وعذّبه قبل خمسة وعشرين عاماً.

أخرج بايّاكو من جيبه مطواة، فتحها وأشهرها في وجه سابالو:

أيّها اللّص! سوف أقطع أذنيك!

واجهه الطفل:

تقدّم، إذن. إنّني لم أعد أخشاك!

دفعته لودو إلى داخل الشقّة:

ادخل، يا بُنيّ. كنّا مخطئين حين فتحنا هذا الباب.

ارتمى ناصر الإنجيلي على بايّاكو، وجرّده من سلاحه:

اهدأ، أيّها الصغير. اعطني هذا. هيا لنتحدّث:

فرح مونْتي لدهشة السُّوبا الصغير:

آه، أيّها الرفيق أرنالْدو كْروش! كلّما سمعتُ أحداً يتحدّث عن أنغولا بالسوء، ذكرت أمثالك. بلدٌ حيث المجانين بدورهم يغتنون، بل حتّى أعداء النظام، لا بدّ أن يكون، بكلّ تأكيد، بلداً في غاية السخاء!

دوّخت الأحداث المتلاحقة أنطونيو، فهمس في أذن العجوز بلغة الكوفالي الملتوية:

هؤلاء الناس لا يملكون ثيراناً، يا أبي. إنّهم لا يعرفون شيئاً

عن الثيران.

أمسك دانييل بنْشيمول بذراع لودو:

انتظري لحظة، يا سيّدتي. اقرئي هذه الرسالة.

غرس السوبا الصغير سبّابته في صدر مونْتي:

ما الذي يُضحكُك، أيّها الضبع؟ لقد ولّى زمنُ الضِّباع.

أعادت إليه لودو الظرف:

لم تعد عيناي قادرتين على القراءة.

أزاح مونْتي ذراع السوبا الصغير، ثم استدار بجسده فانتبه إلى جيريمياش. فبدا كأن تلك المصادفة كانت تزيد من فرحته:

هكذا إذاً! هكذا إذاً! وجْهٌ آخر أعرفُه. لقاؤنا الثاني، هنا في ناميب، لم يمرّ بسلام. على الأقلّ، بالنسبة لي. لكنّكم، هذه المرة، في أرضي.

ارتعش دانييل بنْشيمول لسماع صوت مونْتي. التفت نحو المحقّق:

إنني أذكرك، يا سيّدي. أيْقظتَني ليلة اختفاء سيمون بيير. وكان قصدُك أن تجعلني أختفي. أليس كذلك؟

لحظتها، كانت كلّ الأنظار تتّجه نحو الشرطي السابق. ترك ناصر الإنجيلي بايّاكو وتقدّم نحو مونْتي، غاضباً، والمطواة في يده:

أنا أيضاً أذكرك، يا سيّدي، وليست ذكريات سعيدة.

عندما وجد مونْتي نفسَه محاطاً بكلّ من جيريمياش، وأنطونيو، والسوبا الصغير، ودانييل بنْشيمول وناصر الإنجيلي، بدأ يرجع القهقرى نحو السلالم:

اهدؤوا، اهدؤوا، إن ما وقع قد وقع. كُلّنا أنغوليون.

لم يسمعه ناصر الإنجيلي. كان يسمع صيحاتِه الخاصّة، قبل ربع قرن، داخل زنزانة ضيّقة، تفوح منها رائحة البول والغائط. كان يسمع صيحات امرأة لم يتمكّن قطّ من رؤيتها. صيحات كانت تتعالى من الظلام نفسه. صيحات ونباح كلاب. كان كلّ شيء يصيح من ورائه. كلّ شيء ينبح. تقدّم خطوتين ثم دفع الشفرة في صدر مونْتي. أدهشه أنه لم يجد مقاومة. فأعاد الحركة مراراً وتكراراً. ترنّح المحقّق شاحباً جدّاً، ثم رفع يديه نحو قميصه. لم يرَ دماً. كانت ملابسه سليمة. أمسك جيريمياش ناصر من كتفيه وسحبه إليه. وانتزع دانييل المدية من يده:

إنها مدية مزوّرة. حمداً للربّ، إنها سكين سيرك.

وكذلك كان. كانت المدية تنتهي بطرف أجوف، وزنبرك تنزلق عبره الشفرة، ثم تختفي كلما تمّ الضغط عليها.

وجَّه دانييل لنفسه ضربات في الصدر والعنق، ليبرهن للآخرين على زيف السلاح. بعد ذلك، انقضّ على جيريمياش. وَجّه طعنات لناصر. كان يضحك عالياً، يطلق قهقهات مدوّية، هستيرية، يحاكيها الآخرون. كانت لودو، بدورها، تضحك، متمسكة بسابالو، والدموع تنهمر من عينيها.

وحده مونْتي ظلّ محافظاً على جِدّيته. صَقَل قميصه، استقام ونزل مرة أخرى عبر السلالم. في الخارج، كان الجوّ حارقاً. ريحٌ جافّة تهزّ الأشجار. كان المحقّق يتنفّس بصعوبة. يشعرُ بألم في صدره، ليس هناك حيث أصابته طعنات ناصر الخيالية، بل في الأعماق، في مكان ما خَفِيّ، يصعب عليه أن يسمّيه. مسح عينيه. أخرج النظارتين السوداوين من جيب سرواله ووضعهما على وجهه. ودون سبب واضح، عادت إلى ذاكرته صورة زورق يطفو فوق مياه دلتا نهر أوكافانغو.

يحملُ نهرُ كوبانغو اسم «أوكافانغو» بعد تجاوزه حدود ناميبيا. وعلى كونه نهراً عظيماً فإنه لا يلقى مصير أقرانه نفسه من الأنهار: لا يصبُّ في البحر. يفتح أذرعه القوية ويموت وسط الصحراء تماماً. إنه موت رائع، سخيّ، يملأُ بالخضرة والحياة

رمال كالاهاري. احتفل ناصر بذكرى زواجه الثلاثين في دلتا أوكافانغو، داخل نُزل إيكولوجي. كان ذلك هدية من أبنائه. كانت أياماً سعيدة قضاها رفقه ماريا كلارا، يصطادان الخنافس والفراشات، يقرآن، ويتنزهان على متن زورق.

بعض الناس يعانون من الخوف من أن يطالهم النسيان. وتسمّى هذه الحالة المرضية «رهاب النسيان». أمّا هو، فكان يعاني من شيء عكس ذلك: كان يعيش في هلع من ألا ينسوه أبداً. هناك، في دلتا أوكافانغو، شعر بأنه صار منسيّاً. فكان سعيداً.

حيثُ ينكشفُ كيفَ ساعَد
ناصر الإنجيلي السُّوبا الصغير
على الفِرار من السِّجن

إننا دائماً ما نموت من الإحباط أو بالأحرى نموت حين تهجرنا الروح. تلك هي نظرية السوبا الصغير. ولدعم هذه النظرية، يحكي المقاول ما حدث له عندما سُجن للمرة الثانية. واجه ظروف السجن السيّئة، وسوء المعاملة، والتعذيب، بشجاعة أدهشت ليس أصدقاء المحنة فحسب، بل أيضاً حرّاس السجن ورجال الشرطة السياسية.

لم يكن ذلك شجاعة، يقول معترفاً: كان يجتاحني تمرّدٌ جامحٌ. كانت روحي تتمرّد ضدّ الظلم. الخوف، أجل، كان الخوف أحياناً يؤلمني أكثر من الضرب، لكنّ التمرّد كان يفوق الخوف، ولحظتها كنتُ أواجه رجال الشرطة. لا أسكت أبداً. حين يصيحون في وجهي، أصيح بصوت أعلى. وبعد مرور بعض الوقت، انتبهت إلى أنّ هؤلاء الرجال كانوا يخشونني أكثر ممّا كنت أخاف منهم.

ذات مرة، حين وضعوه في زنزانة ضيّقة، يسمّونها كيفانْغونْدو، كي يعاقبوه، وجد السوبا الصغير فأراً فتبنّاهُ. سمّاه «عظمة»، وهو

اسم ربّما يبدو مفرطاً في التفاؤل بالنسبة لقارض عادٍ، رماديّ ونَفور، قُضمت أذنه وصار جلده في حالة سيّئة. عندما عاد السوبا الصغير مرة أخرى إلى الزنزانة المشتركة، و«عظمة» يجثم فوق كتفه اليمنى، سخر منه بعض الرفاق. أمّا أغلبهم، فلم يعيروا الأمر أيّ اهتمام. في تلك الفترة، نهاية الستينيات، كان سجن «ساوْ باوْلو» يضمّ مجموعة استثنائية من الشخصيات. مرتزقة أمريكيون وإنجليز، أُلقي عليهم القبض أثناء المعارك، يتعايشون بعضهم مع بعض المغضوب عليهم من عناصر «المؤتمر الوطني الإفريقي». شُبّانٌ مثقّفون من اليسار المتطرّف يتبادلون الأفكار مع برتغاليين مسنّين من أتباع سالازار[1]. كان هناك أشخاص دخلوا السجن بسبب الاتجار في الأحجار الماسية وآخرون لأنهم لم يؤدّوا التحية أثناء رفع العلم الوطني. كان بعض السجناء زعماء أحزاب مهمّين، يتبجّحون بصداقتهم مع السيد الرئيس.

يوم البارحة فقط كنت أصطاد مع «الشيخ»، قال أحدهم متبجّحاً للسوبا الصغير: عندما سيعلم بما حصل لي فسوف يخرجني من هنا وسيأمر بسجن كلّ الوُقّح الذين ارتكبوا هذا الأمر في حقّي.

---

(1) أنطونيو دي أوليفير سالازار (1889-1970). حكم البرتغال بقبضة من حديد تحت نظام دكتاتوري امتدّ من 1933 إلى 1974. (المترجم)

فأعدموه في الأسبوع الموالي.

كثيرون لم يكونوا يعرفون حتّى التهم الموجهة إليهم. بعضهم يجنّ. كما كان يجنّ حرّاس السجن. كانت الاستنطاقات غالباً ما تبدو تائهة، عبثية، كما لو أنّ الهدف منها ليس انتزاع المعلومات من السجناء، بل فقط تعذيبهم وإرباكهم.

في ذلك السياق، لم يكن لرجل رفقة فأر مُروّض أن يدهش أحداً. كان السوبا الصغير يعتني بعظمة. يُعلّمه بعض المهارات. يقول له اجلس! فيجلس الحيوان. يأمره استدر! فيشرع الفأر في رسم دوائر. سمع مونْتي بحكايته، فذهب إلى الزنزانة ليزور السجين.

أخبروني أنك قد اتخذت صديقاً جديداً.

لم يجبه السوبا الصغير. وضع لنفسه قاعدة تتمثّل في ألّا يردَّ على أيّ فرد من عناصر الشرطة السياسية، إلا إذا صاح في وجهه. في هذه الحالة، هاجمه صائحاً، يتّهمه بخدمة الدكتاتورية الاجتماعية الفاشية، ... إلخ. فأغضب تصرّفُ السجين المحقّقَ مونْتي.

إنني أتحدّث معك، تباً لك! لا تعاملني كما لو كنتُ غير مرئي.

أدار له السوبا الصغير ظهره. جنّ جنون مونْتي. سحبه من

قميصه. حينئذٍ رأى «عظمة». أمسك الحيوان بيده، رماه على الأرض وسحقه بقدمه. وسط كلّ الجرائم الفظيعة التي كانت تقترف في تلك الفترة، هناك بين أسوار السجن، لم يؤثر موتُ «عظمة» في أيّ أحد سوى السوبا الصغير. غرق الشاب في نوبة من الإحباط العميق. فكان يقضي أياماً بكاملها ممدداً على حصير، صامتاً، جامداً، لا يبالي برفاق الزنزانة. نَحِلَ كثيراً حتّى إنّ ضلوعه صارت ناتئة فوق جلده مثل أوتار آلة كيسانجي. وفي النهاية، أخذوه إلى غرفة التمريض.

عندما ألقوا عليه القبض، كان ناصر الإنجيلي يشتغل في مستشفى ماريا بيبا ممرضاً مساعداً. لم يكن يهتمّ بالسياسة. وكان كلّ اهتمامه منصبّاً على ممرضة شابّة تُدعى سويلي ميريلا، معروفة بساقيها الطويلتين، اللتين تستعرضهما بسخاء داخل تنّورات جريئة، وبتسريحة شعرها المدور على طريقة آنجيلا ديفيس. كانت الشابّة خطيبةَ رجل من رجال أمن الدولة، ثم انساقت وراء غواية الكلمات المعسولة للممرض المساعد. جنّ جنون الخطيب فاتهم غريمه بالارتباط بالانقساميين. تأثر لحالة السوبا الصغير حين رآه. فرسم بنفسه تلك الخطّة المجنونة، والناجحة مع ذلك، التي سمحت بإعادة الحرية إلى الشابّ المنهك. أعادت له، على أيّ حال، حرية نسبية، لأنه، كما يحلو للسوبا الصغير أن يردّد، لا يوجد أيّ إنسان حرّ مادام إنسان آخر وراء القضبان.

سَجَّل ناصر الإنجيلي وفاةَ السوبا الصغير، المدعو أرنالْدو كروشْ، 19 سنة، طالب في الحقوق، وقام هو نفسه بوضح الجثة في التابوت الذي تسلمه ابن عم بعيد، هو في الواقع رفيق من رفقاء الحزب الصغير الذي كان الطالب يناضل في صفوفه. ثم دفنه خلال جنازة متواضعة في مقبرة آلتو داش كروزيش. وقام بعد ذلك بإفراغ التابوت من راكبه. بعدها دأب السوبا الصغير على زيارة القبر كلما حلّت ذكرى موته المفترض، يحمل أزهاراً لنفس: أعدُّ هذا بالنسبة لي تأملاً في تقلب الحياة وتمريناً صغيراً على الغيْرِيَّة، كان يقول لأصدقائه. أذهبُ إلى هناك، وأحاول أن أفكّر في نفسي كما لو كنتُ قريباً مقرّباً. وأنا في الحقيقة أقرب الأقرباء إلى نفسي. أفكّر في عيوبه، وفي مثالبه، وإن كان يستحقّ أو لا يستحقّ أن أذرف عليه دموعي. ودائماً تقريباً أذرف شيئاً من الدموع.

مرت عدة أشهر قبل أن يكتشف رجال الشرطة تلك الخدعة. حينئذٍ، ألقوا عليه القبض مرة أخرى.

أسرارُ لوانْدا

كان السّوبا الصغير يتسلّى بالحديث مع بائعي قطع الصناعة التقليدية. يتيه في الأزقّة المغبرة، بين الأكواخ الخشبية، يفحص إزارات الكونغو، وألف قماش وقماش رسمت عليها شمس الغروب، ورقصات الطبل، وأقنعة تْشوكْوي التي يدفنها الحرفيون أثناء الشهور المطيرة حتى تبدو عتيقة. أحياناً، يشتري قطعة قد لا تعجبه فقط ليستمرّ في الحديث. وبدافع التضامن أكثر من التفكير في الربح، خلق مقاولة خاصّة بإنتاج وتسويق قطع الصناعة التقليدية. كان يصمّم بنفسه قطعاً من الخشب الأسود يتكلّف الحرفيون بعد ذلك بنسخها. يبيع تلك القطع في مطار لوانْدا وفي محلات صغيرة خاصّة بما يسمّى التجارة المُنْصِفة في باريس، ولندن ونيويورك. يُشغّلِ أكثر من عشرين حرفياً. كانت أكثر تلك القطع شهرة تصوّر «مُفكرا»، وهي شخصية شعبية من فنّ النحت الأنغولي، سُدّ فمُها بكُمامة. أطلق الناس على هذه القطعة اسم «**وخاصَّةً، لا تُفكّر**».

في تلك الظهيرة، عبر السوبا الصغير السوق دون أن يعير اهتماماً للبائعين. اكتفى بأن يبتسم، مشيراً بحركة من رأسه لمن يحيونه. كان بَّابِّي بولينْغو قد بدأ عرضه، وفوفو يغني قطعة قديمة لأوركيسترا الباوباب. الحانة ممتلئة عن آخرها. حين رآه يصل،

جاء نادل وأحضر كرسياً مطوياً. فتحَ الكرسي وجلس المقاولُ. كان الناس يضحكون، منبهرين، بينما فوفو يتحرّك رفقة الإيقاع، يفتح ويغلق فمه الواسع.

كان السّوبا الصغير قد تابع العرض عدة مرات. يعرف أن بَّابِّي بولينْغو كان يشتغل في سيرك في فرنسا، أثناء سنوات المنفى. وفي تلك الفترة، بكلّ تأكيد، اكتشف وطوّر مواهبه في فنّ التحدّث من البطن الذي يكسب به قوت يومه. وكان مهندس الصوت سابقاً يؤكّد، حتّى مع ذاته، على أصالة العرض:

فوفو يتحدّث! كان يؤكّد بعناد وسط القهقهات. فوفو يُغنّي. لستُ أنا من يفعل ذلك. لقد علّمتُه الكلمات الأولى، عندما كان صغيراً. وبعد ذلك، علّمتُه الغناء.

إذن، نريد أن نراه يغنّي بعيداً عنك!

يستحيل! هذا الرجل لا يفعل ذلك. إنه شخص خجول.

انتظر السوبا الصغير حتّى نهاية العرض. بدأ الناس يغادرون، متحمّسين، ومتأثّرين بسحر المعجزة التي عاينوها من فورهم. اقترب المقاول من الفنانَين:

هنيئاً! إنكما كلّ مرة في تحسّن مستمرّ.

شكراً، قال فرس النهر بصوت معدنيّ وجهوريّ ذي نبرة درامية: حظينا بجمهور سخيّ.

داعب السوبا الصغير ظهره:

هل أنت مرتاح هناك في الريف؟

مرتاح جداً، يا عرّابي. لدي ماء وافر، ووحل أتمرغ فيه.

انفجر بَّابِّي بولينْغو في ضحكة واضحة. ضحك معه صديقه. وبدا أن فوفو كان يقلدهما، يحرّك رأسه، ويضرب بقوائمه الضخمة على المنصّة الصغيرة. كان صاحب المحلّ، وهو محارب سابق يدعى بيدرو أفونسو، قد فقد ساقه اليمنى في انفجار لُغم. لكن ذلك لم يسلبه شغفَ الرقص. لا يمكن لأيّ أحد أن يشكّ أنه يستعمل ساقاً اصطناعية وهو يراه يرقص. اقترب حين سمع قهقهات الصديقَين بينما كان يرسم على الأرض الترابية حركات زوْمبا معقّدة:

لقد خلق الرّب الموسيقى حتى يتمكن الفقراء من الشعور بالسعادة.

ثم أمر بإحضار قنان جعة لثلاثتهم:

سوف نشرب من أجل سعادة الفقراء.

احتجّ السوبا الصغير:

- وماذا عني أنا؟

أنت؟! آه، دائماً أنسى أنك غني. هنا في بلدنا، أول علامة خارجية على الغنى عادة ما تكون هي الغطرسة. وأنت لست متغطرساً بأي حال من الأحوال. لم يسيطر المال على فكرك.

- شكراً. هل تعرف كيف أصبحتُ غنياً؟

- يقولون إن طائراً نزل من السماء، حطّ فوق يدك وبصق حجريْن من الماس.

هكذا حدث تقريباً. قتلتُ حمامة لآكلها، فوجدت حجرين من الماس في حوصلة الطائر. قبل بضعة أيام اكتشفتُ من هو صاحبُ الحجرين. ظلّ السوبا الصغير صامتاً لحظة يستمتع بدهشة الصديقَين: كان الحجران في ملك جارتي، امرأة برتغالية عجوز. قضت عشرين عاماً ونيّف في الفقر، بينما كانت غنية. وجعلتني أنا غنياً، وهي تجهل ذلك.

روى الحكاية، متوقفاً عند التفاصيل، وعند تطورات الحدث وتقلباته، مبتكراً بموهبة وذوق كلّ ما لم يكن يعرفه. أراد بَّابِّي بولينْغو أن يعرف إن كانت العجوز قد احتفظت ببعض الأحجار الماسية. نعم، أكّد له المقاول. لقد بقي منها حجران كبيران حتّى

إنه لم يرغب أيّ حمام في تناولهما. أهدتهما البرتغالية إلى راعيَين من الموكابيين. ويبدو أنها كانت تعرف البدويَين، لست أدري كيف حدث ذلك. لواندا لها أسرارُها.

هذا صحيح، وافقه بيدْرو أفونْسو: عاصمتُنا تعجّ بالأسرار. لقد رأيتُ في هذه المدينة ما لا تتّسعُ له الأحلام.

موتُ مونْتي

قتلَ صحنٌ لاقط ماغْنو موريرا مونْتي. سقط من السطح بينما كان يحاول تثبيت الصحن. بعد ذلك، سقط الصحنُ فوق رأسه. هناك من رأى في الحادث استعارة ساخرة من الأزمنة الحديثة. إنّ الشرطيَّ السابق في أمن الدولة، وآخر ممثّل لماضٍ أنغوليّ لا يرغب الكثيرون في تذكّره، ربّما يكون قد صرعهُ المستقبل. لقد انتصر التواصلُ على الظلامية، وعلى الصمتِ والرقابة؛ كما سحقت النزعةُ الكونية النزعةَ المحلّية.

كانت ماريا كلارا تحبّ متابعة المسلسلات البرازيلية. أمّا الزوج، فكان لا يعير التلفزة أيّ اهتمام. تثيرُ تفاهةُ البرامج غضبَه. وتغضبه نشراتُ الأخبار أكثر من ذلك. يتابع مباريات كرة القدم، ويشجّع فريق «بريميرو دي أغستو» و «بينْفيكا». من حين لآخر، كان يجلس، مرتدياً منامة ومنتعلاً خفّاً، ليعيدَ مشاهدة فيلم قديم بالأبيض والأسود. كان يفضّل الكتب. راكم منها مئات العناوين. وكان يفكّر في أن يقضيَ آخرَ سنوات حياته في إعادة قراءة جورج أمادو، ماشادو دي أسيس، كلاريسي ليسبيكتور، لواندينو فييرا، روي دوارتي دي كارفايو، خوليو كورتاثار، وغابرييل غارثيا ماركيث.

عندما انتقلا إلى بيت آخر تاركَين وراءهُما صخب لواندا وهواءها الملوّث، حاول مونْتي أن يقنع زوجته بالتخلّي عن التلفاز. وافقت ماريا كلارا على ذلك. لقد تعوّدت على موافقته الرأي. في الأسابيع الأولى قرآ معاً. وكان كلّ شيء يبدو على ما يرام. لكن ماريا كلارا كانت تغرق في الحزن. تقضي ساعات طوال على الهاتف تتحدّث مع صديقاتها. فقرّر مونْتي، حينئذٍ، أن يشتريَ صحناً لاقطاً ويثبّته فوق السطح.

لقد مات من أجل الحبّ، إن صحّ هذا التعبير.

اللّقاءُ

كانت ماريّا دا بْييدادي لورينْسو امرأةً رقيقةً وعصبية. لونُ شعرِها ضاربٌ إلى الرماديّ، مهمل، ومنتصب كأنّه قُنْزُعة فوق أعلى رأسها. لا تستطيع لودو أن تميّز تفاصيل وجهها، لكنّها انتبهت إلى القُنْزُعة. تبدو كأنها دجاجة، فكّرَت، ثم سرعان ما ندمت على ما فكرت فيه. كانت جدّ متوتّرة في الأيام التي سبقت مجيء ابنتها. لكن، حينما برزت البنت أمامها نزلت عليها سكينة كبيرة. أمرت بإدخالها. كانت الصالة الآن مصبوغة ومرتبة، وبها أرضية جديدة، وأبواب جديدة، وكلّ هذا على نفقة الجار أرْنالدو كروش، الذي ألحَّ أيضاً على أن يهديَها أثاثاً جديداً. اشترى الشقّة من لودو، وتنازل لها على حقّ الانتفاع منها مدى الحياة، كما التزم بدفع مصاريف دراسة سابالو حتّى ينهيَ مساره الجامعي.

دخلت المرأة. جلست على كرسي، متوتّرة، تتمسّك بحقيبتها اليدوية كمن يتمسّك بطوق نجاة. ذهب سابالو ليُحْضر شاياً وبعض البسكويت.

- لا أعرفُ بأيّ اسم أناديكِ.

- يمكنكِ أن تناديني لودوفيكا، إنه اسمي.

- هل يمكنني أن أناديك أمّي، في يوم من الأيام؟

وضعت لودو يديها على بطنها. انطلاقا من النوافذ، كانت تستطيع أن ترى أعلى أغصان شجرة الموليمْبا. لا تزعزعها أيّ هبّة نسيم.

- أعرفُ أنه لا عذر لي، همهمت: كنتُ صغيرة جدّاً وخائفة. لكن هذا لا يُسوّغ ما فعلتُه.

سحبت ماريّا دا بييدادي الكرسيّ نحوها. وضعت يدَها اليمنى على ركبتِها:

- إنني لم آت إلى لوانْدا لألقي عليك باللوم. جئتُ لأتعرّف عليك. أريد أن آخذك معي ونرجع معاً إلى أرضنا.

أمسكتها لودو من يدها:

- يا بنتي، هذه هي أرضي. لم تعد لي أرض سواها.

ثم أشارت إلى شجرة الموليمْبا:

- لقد رأيت تلك الشجرة وهي تكبر. وهي رأتْني أشيخ. إنّنا نتحدّث كثيراً.

- لا بدَّ أنّ لك أسرة في أفييْرو.

- أسرة؟

- أسرة، أصدقاء، لستُ أدري.

ابتسمت لودو لسابالو، الذي تابع كلّ شيء، بانتباه كبير، وهو غارقٌ في إحدى الأرائك:

- أسرتي هو ذلك الطفل، تلك المولِيمْبا هناك في الخارج، وشبحُ كلْب. نظري يسوء يوماً عن يوم. جاء إلى بيتي طبيبُ عيون، من أصدقاء جاري، وفحصني. قال إنّني لن أفقدَ البصر بشكلٍ كامل؛ لأنّني أحتفظ بالبصر الهامشيّ. سأكون دائماً قادرةً على تمييز الضوء، والضوءُ في هذا البلد نعمةٌ وسعادة. على أيٍّ، أنا لا أريدُ أكثر من هذا: الضوء، وسابالو ليقرأ لي، وسعادة رمّانة كلّ يوم.

حمامةٌ اسمُها «حُبّ»

الحمامةُ التي غيّرت حياة السُّوبا الصغير- وخفّفَتْ جوعهُ فوق ذلك- كانت تدعى «حبّ». أتجدون الأمر مضحكاً؟ ارفعوا شكواكم إلى ماريا كلارا. هي من أعطته هذا الاسم. لحظة الاستقلال، كانت زوجة ماغْنو موريْرا مونْتي في المستقبل طالبةً شابّة في الثانوية. كان والدُها، هوراسْيو كابيتاوْ، موظّفاً في الجمارك، يربّي الحمام الزاجل. كانت طيور الحمام التي تُسمّيها ماريا كلارا عادة ما تصبح أبطالاً. وهذا ما حدث قبل «حبّ»، مع «عاشق» (1968)، و«ولهان» (1971)، و«متيّم» (1973)، و«مفتون» (1973). كان «حبّ» على وشك أن يُلقى به في المزبلة وهو لا يزال في البيضة. إنه لا ينفع لذلك، قال هوراسْيو كابيتاوْ لابنته: انظري إلى هذه القشرة الخشنة، والسميكة فوق العادة. إن طير حمام صحي، قوي، يحسن الطيران، يخرج من قشرة ناعمة ولامعة. قلّبت الشابّة البيضة بين أصابعها الطويلة، وتكهّنت:

سوف يكون بطلاً، يا أبي. وسأسمّيه «حبّ».

وجاء «حبّ» إلى هذه الدنيا برجْلَين رقيقتَين. يزقزق كثيراً فوق الوعاء. وفوق ذلك، تأخّر ريشه كثيراً في النموّ. لم يكن هوراسْيو كابيتاوْ يخفي حزنه واشمئزازه:

ينبغي أن نتخلّص منه، يا ماريا كلارا. هذا الحيوان الرديء لن يطير أبداً بشكل جيد. إنه فاشل. ينبغي لمربّي الحمام الزاجل أن يعرف كيف يميّز الحمام الجيد من الحمام الرديء. نستبعد الحمام الرديء ولا نضيع معه وقتاً.

لا! كانت البنتُ تُلحّ: لديّ ثقة مطلقة في هذه الحمامة. لقد ولدت «حبّ» لتنتصر. وبدأت «حبّ»، بالفعل، تكبر وتتطوّر. لكنّها كبرت أكثر من اللازم، للأسف. حين رآها سمينة، وأكبر من حمام حُضْنتها، عاد هوراسْيو كابيتاوْ ليُحرّك رأسه:

علينا أن نأكلها. إنه لا حُظوظ للحمام السمين إلا في مسابقات السرعة، ولا ينفع في المسافات الطويلة.

وكان مخطئاً. فقد كانت «حبّ» في مستوى انتظارات ماريا كلارا. وكانت سنتا 1974 و 1975 سنتي المجد بالنسبة لها. أبانت عن سرعتها، وعزيمتها، وارتباطها الغريزي ببرج الحمام:

لقد أظهرت هذه اللعينة ارتباطاً قوياً بالمكان، اعترف هوراسْيو كابيتاوْ أخيراً: والارتباط بالمكان هو أهمّ ميزة من ميزات الحمام الزاجل.

وهو ينظر إلى نفسه في المرآة، كان هوراسْيو كابيتاوْ يرى رجلاً فارعاً مفتول العضلات، وهو ما لم يكنه، بل لم يكن طولُه،

عكس ذلك، يتجاوز متراً وستين سنتيمتراً، وله ذراعان رخوان، وكتفان نحيفتان، وعظام طائر صغير. لم يكن يتوارى قطّ أمام أيّ مواجهة، وإن أتيحت له الفرصة يوجّه أول ضربة، قبل أن يتلقّى بعد ذلك ضربات خصمه، ويعاني كثيراً في جسده الضعيف، لكنّه يظلّ دائماً عنيداً مثل عملاق. ولد في لواندا داخل أسرة من الطبقة الوسطى الخلاسية، ولم يزر البرتغال سوى مرة واحدة. لكنّه كان يشعر، حسب قوله، أنه **برتغاليّ قُح**. تركته ثورة أبريل غاضباً ودائخاً. يكون في بعض الأيام أكثر غضباً، وفي أيام أخرى أكثر دوخة. تارة يتيه نظرهُ في السماء، وتارة يوجّه شتائمه ضد الخونة والشيوعيين، الذي يحاولون، دون خجل، بيع أنغولا للإمبراطورية السوفياتية. وعاين، بفزع، بداية الحرب الأهلية وانتصار الحركة الشعبية لتحرير أنغولا، وحلفائها من كوبا والمعسكر الشرقي. كان بوسعه أن يغادر إلى لشبونة، كما فعل كثيرون آخرون، لكنه لم يرغب في ذلك:

ما دام في هذه الأرض برتغالي حقيقي، فإن أنغولا ستبقى هي البرتغال.

وخلال الشهور التي تلت الاستقلال رأى كيف توالت المآسي التي تنبأ بها: هروب المعمرين وجزء كبير من البورجوازية المحلية، إغلاق المعامل والمحلات التجارية الصغرى، انهيار

خدمات الماء والكهرباء وجمع النفايات، السجون الجماعية، والإعدامات. لم يعد يزور برج الحمام. يقضي أياماً بكاملها في حانة «بيكير». ألم أقل لكم ذلك؟، كان يقول لبعض أصدقائه، معظمهم موظّفون عموميّون سابقون، ظلّوا يرتادون الحانة التاريخية. أصبح مزعجاً، يلحّ ويلحّ على المؤاخذات نفسها والتنبّؤات الحالكة نفسها، حتّى إنه، في لحظة ما، بدأ الآخرون يسمّونه «السيّد ألم- أقل- لكم- ذلك».

ذا صباح ماطر بالرذاذ، وهو يفتح الجريدة، وجد مصادفة صورة تجَمُّع سياسي. رأى، في المشهد الأمامي، ماريا كلارا تعانق موريرا مونْتي، فجرى ليعرض الجريدة على مُخْبر قديم من الشرطة السياسية البرتغالية، أرتور كيفيدو، الذي صار، بعد الاستقلال، يقوم بخدمات متواضعة لصالح الخدمات الجديدة للمخابرات والأمن:

هل تعرف هذا الشخص؟ من يكون هذا الشخص؟

تفحّص كيفيدو صديقَه بنظرة شفقة:

إنه شيوعي متعصّب. أسوأ أنواع الشيوعيّين، ذكي، ويُكنُّ حقداً دفيناً للبرتغاليين.

عاد هوراسْيو إلى بيته مرعوباً. ابنتُه، طفلته، أميرته، سقطت

بين يدي مخرب. لن يعرف ما يقوله للمتوفاة زوجته عندما سيراها من جديد. كان قلبه يخفق بسرعة وهو يتقدّم. سيطر عليه الغضب. وكان يصيح عندما فتَح الباب:

ماريا كلارا!

حضرت البنت. جاءت من المطبخ وهي تنظّف يديها بمريلتها:

أبي؟

ابنتي، أريدك أن تبدئي بجمع حقائب السفر. سوف نذهب إلى العاصمة.

ماذا؟

كانت ماريا كلارا قد أكملت ربيعها السابع عشر. وورثت عن والدتها الجمال الهادئ، وعن والدها الشجاعة والعناد. مونْتي، الذي يكبرها بثماني سنوات، كان هو أستاذها لمادة اللغة البرتغالية، سنة 1974، سنة الحماسة والنشوة. وكانت عيوبُ هوراسيو هي ما جعلها تنجذب إليه. انجذبت لصوت الأستاذ

العميق وهو يقرأ في القسم أشعار جوزي ريجْيو[1]: **حياتي زوبعة عاصفة/ حياتي موجة عاتية/ ذرة أخرى ترتفع.../ لا أدري حيث أمشي/ لا أعلم أين أتجه/ لكنّي أعرف أنني لا أقصد ذلك المكان.**

خلعت الفتاة مريلتها. ثم داستها بغضب.

اذهب أنت يا أبي. سأبقى هنا في هذا البلد.

صفعها هوراسْيو:

عمرك سبعة عشر عاما، وأنت ابنتي. ستفعلين ما آمرك به. إلى الآن، ستبقين داخل البيت، ولا أريدك أن ترتكبي أيّ حماقة أخرى.

أمر الخادمة ألا تترك ماريا كلارا لتخرج وذهب ليقتني تذاكر الطائرة. باع السيارة بثمن زهيد لأرتور كيفيدو، وسلّمه نسخة من مفاتيح البيت:

ستذهب إلى هناك كلَّ يوم لتفتح النوافذ وتسقي الحديقة، كي يظنّ الناس أن البيت لا يزال مسكوناً. لا أريد أن يحتلّ الشيوعيون منزلي.

كانت ماريا كلارا تستعمل طيور الحَمَام، منذ عدة أسابيع،

---

(1) جوزي ريجْيو (1901-1969). مثقّف وأديب برتغالي. كتب في الرواية، والقصّة، والمسرح، والشعر، والصحافة. وكان مؤثّراً في الحياة الثقافية نظراً لقوة شخصيته وسمعة المجلّات الأدبية التي كان يديرها، مثل مجلة «Presença». (المترجم)

كي تتواصل مع عشيقها. لقد قطع هوراسيو خطوط الهاتف، بعد أن بدأ يوصل مكالمات مجهولة تحمل تهديدات بالموت. لم تكن التهديدات تتعلّق بأمور السياسة. ولا علاقة لها بذلك. كان موظّف الجمارك يشكّ في صديق حسود. وكان مونْتي، بدوره، يسافر كثيراً، لينجز مهامَّ سرية، في مناطق الصراع أحياناً. ماريا كلارا، التي كانت وقتها تعتني ببرج الحمام وحدها، كانت تبعث لعشيقها ثلاث أو أربع حمامات تطلقها عند الغروب، مع قصائد حبّ وأخبار قصيرة مشدودة إلى أرجلها.

عن طريق الخادمة، تمكّنت ماريا كلارا من أن تبعث رسالة إلى إحدى صديقاتها، التي ذهبت لتبحث عن مونْتي. وجدته في «فيانا»، يتحرّى إشاعات حول تنظيم انقلاب عسكري، يشارك فيه ضبّاط من السّود، ضاقوا ذرعاً من هيمنة البيض والخلاسيين على أعلى المراتب في صفوف القوّات المسلّحة. جلس مونْتي وكتب:

غداً. الساعة السادسة، في المكان المعتاد. كوني حَذِرة جدّاً. أحبّك.

وضع الرسالة في أسطوانة بلاستكية صغيرة ثم شدّها إلى الرجل اليمنى لإحدى الحمامتَين اللتين جلبهما. ثم أطلق الحمامة.

انتظرت ماريا كلارا الردّ دون جدوى. بكت الليل كلّه. لم تحتج وهي في طريقها إلى المطار. ولم تتكلّم حتى نزلوا في لشبونة. بقيت مدّة قصيرة في العاصمة البرتغالية. وبعد خمسة أشهر على إتمام سنّ الثامنة عشرة عادت إلى لوانْدا وتزوجت مونْتي. ابتلع هوراسْيو كبرياءه، جمع حقائبه، وتبع ابنته. علم متأخّراً جدّاً، أنّ صهره المنتظر قد عمل على أن يُجنِّبَه السجنَ عدّة مرات، أثناء السنوات المضطربة التي أعقبت الاستقلال. ولم يشكره قطّ على ذلك. لكنّه، يوم الجنازة، كان من بين من بكوه أكثر.

إن الرّب يزنُ الأرواح في ميزان. في كفّة يضع الروح، وفي كفّة أخرى ما ذرفَه الناس عليها من دموع. فإن لم يذرف عليها أحد دمعة، تنزل الروح إلى الجحيم. وإن كانت الدموع كافية، وحزينة بما يكفي، تصعد الروح إلى السماء. كانت لودو تؤمن بهذا كلّه. أو تودّ أن تؤمن بذلك. هذا ما قالته لسابالو:

يدخلُ الجنّة أولئك الأشخاص الذين يشعرُ الناسُ بفقدهم. والجنّةُ هي الفضاءُ الذي نشغله في قلوب الآخرين. هذا ما كانت تحكيه لي جدّتي. لا أؤمن بهذا. أودّ لو أؤمن بكلّ ما هو هيِّن، لكنّ الإيمان يعوزني.

حظي مونْتي بمن يذرف عليه دموعاً. يصعب عليّ أن أتخيّلَه

في الجنّة. لكنّه ربّما يكفّر عن ذنوبه، في ركن ما مظلم من البَون، بين نور الجنّة وظلام الجحيم المضطرب، يلعب الشطرنج مع الملائكة التي تحرسه. ولو كانت الملائكة تعرف لعبة الشطرنج، وتتقنها، لكان ذلك هو الجنة تقريباً بالنسبة إليه.

أما هوراسْيو كابيتاوْ، أو «السيد ألم-أقل-لكم-ذلك»، فيقضي فترات الظهيرة في حانة بائسة من حانات الجزيرة، يشرب الجعة، ويتحدّث في السياسة، رفقة الشاعر فيتورينو غافياوْ، وأرتور كيفيدو بالإضافة إلى عجوزَين أو ثلاثة عجائز مُتعبين من الزمن الماضي. حتى اليوم لا يعترف باستقلال أنغولا، ويعتقد أنه كما انتهت الشيوعية، سوف ينتهي الاستقلال أيضاً. وما زال يربّي الحمام الزاجل.

مكتبة
t.me/t_pdf

اعترافُ جيريمياش الجلاد

لنعد إلى ذلك الصباح يوم قام ناصر الإنجيلي، مدفوعاً بصدى أصوات متجهّمة، فانقضّ على مونْتي وطعنه. ومن وسط غوغاء الناس الذين تجمهروا أمام باب لودو، كان يبرز، كما قد تذكرون، شخصان يرتديان ملابس سوداء. انتبهَت إليهما المرأة العجوز بعد الفرار المخزي لمونْتي والخروج (المتسرّع أيضاً) لبايّاكو. انتبهت إليهما، لكنّها لم تتمكّن من معرفة ما كانا يريدانه، لأنه، أثناء ذلك، بدأ دانييل بنْشيمول بقراءة الرسالة التي كتبتها ماريّا دا بييدادي لورينْسو إلى مدير **جريدة أنغولا**.

انتظر الرجلان حتى ينتهي الصحافي من قراءة الرسالة. وعاينا، في صمت، أسى لودو، والدموع التي كفكفتها بظهر يدها. في الأخير، انسحب دانييل، قاطعاً على نفسه وعداً بالكتابة إلى ماريّا دا بييدادي، ثم تقدّم الرجلان. مدّ أكبرهما يده إلى لودو، لكن أصغرهما هو من تكلّم:

إنّنا نطلب منك الإذن بالدخول، يا سيدتي.

ماذا تريدان؟

أخرج جيريمياش الجلّاد من جيب معطفه كراسة وكتب فيها

بسرعة. مدّها إلى لودو. حرّكت المرأة رأسها:

أرى أنها كراسة. لم أعد أستطيع قراءة الحروف. هل أنت أبكم، يا سيدي؟

قرأ الشاب بصوت مرتفع:

دعينا ندخل، من فضلك. أنا بحاجة لعفوك ولمساعدتك.

واجهتهما لودو بعناد:

ليس عندي أين أُجْلِسُكُما. إنّني لا أتلقى زيارات منذ ثلاثين سنة.

كتب جيريمياش مرة أخرى، ثم مدّ الكراسة إلى الابن:

سوف نبقى واقفَين. يقول والدي إن الكَرَاسي، حتى أحْسَنها، لا تُحسن الأحاديث.

تركتهما لودو يدخلان. ذهب سابالو وأحضر أربعة براميل زيت. قعدوا عليها. نظر جيريمياش بفزع إلى الأرضية الإسمنتية، وإلى الجدران الداكنة المغطّاة بكتابات فحمية. خلع القبّعة عن رأسه. كانت جمجمته الصلعاء تلمع في العتمة. أخذ يكتب في كراسته.

أختُكِ وصهرُكِ لقيا حتفهما في حادثة سير، قرأ الابن: أنا

المسؤول عن ذلك. أنا الذي قتلتهما. تعرفتُ على العجوز بيكو في ويجي، عند بداية الحرب. هو من جاء يبحث عنّي. حدَّثَهُ عنّي أحدهم. كان بحاجة لمساعدتي لتنفيذ خطّة ضدَّ شركة دْيامانغْ. شيء نظيف، منجز بإتقان، من دون دم ولا فوضى. اتفقنا على أن أحتفظ بنصف عدد الأحجار. فعلتُ ما كان عليّ أن أفعله، ومرّ كلّ شيء على أحسن ما يرام، لكن، في النهاية، هرب بيكو. وتركني خاوي اليدين. لم يظن قطّ أنني سآتي لأبحث عنه في لوانْدا. لم يكن يعرفني. دخلتُ إلى المدينة المحاصرة من طرف قوّات موبوتو ومن طرف ذوينا. مغامرةٌ مجنونة. ثم بحثت عنه هنا وهناك، مدة يومين، حتّى وجدته في النهاية في حفل، في الجزيرة. لاذ بالفرار عندما رآني. لاحقتُه بالسيارة، كما في الأفلام. حينئذ، حاد عن الطريق وارتطم بشجرة. ماتت أختُك من فورها. أمّا بيكو، فعاش ما يكفي من الوقت ليقول لي أين خبّأ الأحجار الماسية. أنا آسف جدّاً.

كان أنطونْيو يقرأ بصعوبة. ربّما بسبب قلّة الضوء، ربّما لأنه لم يكن معتاداً على القراءة، أو ربّما لأنه لم يكن يصدّق ما كان بصدد قراءته. حين انتهى، رفع نحو والده عينين دهشتين. كان العجوز قد استند إلى الجدار وأخذ يتنفّس بصعوبة. انتزع الكراسة من يدي أنطونيو واستأنف الكتابة. رفعت لودو يدها، في حركة غامضة، مضطربة، محاولةً أن تمنعه من ذلك:

لا تعذّب نفسك أكثر من هذا. الأخطاءُ تُصحِّحُنا. ربّما يكون النسيان ضرورياً. علينا أن نمارس النسيان.

حرّك جيرونيمو رأسه، غاضباً. ثم خربش كلمات أخرى في الكراسة الصغيرة. وسلمها لابنه:

إن والدي لا يريد أن ينسى. النسيانُ هو الموتُ، يقول. النسيانُ استسلامٌ.

ثم استأنف العجوز الكتابة:

إن والدي يريدني أن أتحدّث عن شعبنا. إنه يريدني أن أحدّثكم عن الثيران؛ لأن الثيران ثروتنا، لكنّها ليست سلعا تباعُ وتُشترى. نحن نتأمّل الثيران، ونحبُّ الاستماع لصياحها.

ظلّ جيرونيمو منعزلاً وسط الموكابيين، فوُلد من جديد ليس شخصاً آخر بل أشخاصاً آخرين، شعباً. قبل ذلك، كان هو نفسه وسط الآخرين. وفي أحسن الأحوال، كان هو نفسه، يعانقُ الآخرين. في الصحراء، شعر أول مرة أنه جزءٌ من كُلٍّ. يزعم بعض علماء الأحياء أن نحلة وحيدة، نملة وحيدة، لا تشكّل سوى خلايا متحرّكة للفرد نفسه. لكن الأعضاء الحقيقية هي خلية النحل وقرية النمل. وكذلك لا يوجد موكابالي واحد دون الآخرين.

وبينما كان أنطونْيو يقرأ بصعوبة شروحات والده، تذكّرت لودو بعض الأبيات الشعرية لفرناندو بيسوا: **أشفق على النجوم/ التي تلمع منذ زمان/ منذ زمان بعيد.../ أشفق عليها/ ألا يكون ثمّة تعب/ تعب الأشياء/ كلّ الأشياء/ مثل تعب الأرجل وتعب الذراع؟/ تعب من الحياة/ تعب من الوجود/ من الوجود فقط/ من أن تكون لامعاً أو حزيناً.../ / ألن يكون هناك/ لما يوجد من أشياء/ موت، بل/ نوع آخر من النهاية/ أو سبب كبير آخر/ شيء ما/ يشبه الغفران؟**

كان أنْطونيو يتحدّث عن الأشخاص الجدد من مُلّاكي الأراضي الشاسعة، وعن الأسلاك الشائكة التي تقسم الصحراء، وتقطع مسالك الولوج إلى المراعي. إنّ الردّ بإطلاق الرصاص قد يؤدّي إلى حروب فظيعة، يمكن أن يخسر أثناءها الموكابيون قطيعهم، ويفقدوا روحهم وحريتهم. هذا ما حدث سنة 1940، حين قتل البرتغاليون الشعب كله تقريباً، وأرسلوا الناجين منهم عبيداً ليشتغلوا في مزارع ساوْ تومي. ويتمثّل الحلّ الآخر، حسب، جيرونيمو، في اقتناء الأراضي، تلك التي كانت دوماً في ملك شعب الكوفالي، والهيمبا، والموتشافيكوا، والتي أصبحت اليوم بين أيادي جنرالات ومقاولين أغنياء، كثيرون منهم لا تربطهم أي صلة بسماء الجنوب الشاسعة.

نهضت لودو، وذهبت لتبحث عن حجرتيْ الماس المتبقيتَين، ثم سلمتهُما لجيرونيمو.

الحادث

أحياناً كثيرة، حين كنتُ أنظر إلى المرايا، أراهُ ورائي. اليوم لم أعد أراه. ربّما لأنّني لا أرى بشكل جيّد (وتلك من محاسن العمى)، وربّما لأننا غيّرنا المرايا. حالما توصلتُ بأموال الشقّة، اقتنيتُ مرايا جديدة. تخلّصتُ من القديمة. فاستغرب جاري الأمر:

الشيء الوحيد في حالة جيّدة في هذه الشقّة هي المرايا.

كلا! قلتُ غاضبة: إن المرايا مسكونة بالأرواح.

مسكونة بالأرواح؟!

نعم، يا جاري. إنها تعجّ بالأرواح. لقد قضَتْ وقتاً طويلاً وهي وحيدة.

لم أرد أن أخبره أنه، أحياناً كثيرة، حين أنظر إلى المرايا كنتُ أراه، وهو ينحني نحوي، ذلك الرجلُ الذي اغتصبني. في تلك الفترة، كنتُ لا أزال أخرج من البيت. أعيش حياة شبه عادية. أذهب إلى الثانوية وأعود منها على متن دراجتي. في الصيف، نكتري بيتاً في شاطئ كوشْتا نوفا. كنتُ أسبح. تعجبني السباحة. ذا مساء، حين وصلتُ إلى البيت، انتبهت إلى غياب

كتاب كنتُ بصدد قراءته. عدتُ وحدي أبحث عنه. كان هناك صفّ من الأكواخ المُقامة فوق الرمال. أثناء ذلك، كان الليل قد حلّ فصارت الأكواخ خالية. توجّهتُ نحو الكوخ الذي كنّا فيه. ولجتُه. سمعتُ صوتاً، وحين استدرتُ رأيتُ شخصاً عند الباب، يبتسم لي. تعرّفتُه. تعوّدت أن أراه في الحانة، يلعب الورق مع أبي. كنت على وشك أن أشرح له ما كنت أفعله هناك. لم يسعفني الوقت. حين انتبهتُ للأمر كان فوقي. مزّق ثيابي، انتزع لباسي الداخلي، وولجني. أذكر رائحته. أذكر يديه الخشنتين، القاسيتين وهما تعصران نهديّ. صحتُ. ضربني في وجهي، ضربات قوية، ذات نبرات حادّة، ليس بحقد، ولا بغضب، كما لو أنه كان يتسلّى. سكتُّ. وصلتُ إلى البيت أنتحبُ، ثيابي ممزقة، مليئة بالدم، ووجهي منتفخ. فهم والدي كلّ شيء. جنّ جنونه. صفعني. وبينما هو يجلدني بحزامه، كان يصيح في وجهي باغية، قذرة، تعيسة. وما زلتُ أسمعه إلى اليوم: باغية! باغية! وأمّي متمسكة به، وهي غارقة في دموعها.

لم أعرف قطّ بالضبط ما حدث للرجل الذي اغتصبني. كان يشتغل صيّاداً. يقولون إنه هرب إلى إسبانيا. اختفى. حملتُ. أغلقت على نفسي في غرفة. حبسوني في غرفة. هناك في الخارج، كنتُ أسمع الناس يوشوشون. عندما حان الوقت، جاءت مولّدة لتساعدني. لم أتمكّن قطّ من رؤية وجه ابنتي. أخذوها منّي.

العارُ.

العارُ هو ما كان يمنعني من الخروج من البيت. مات أبي دون أن يوجّه لي الكلام مرة أخرى. كنتُ أدخل إلى الصالة فينهض ويغادر. مرت السنون، فمات. بعد بضعة أشهر لحقت به أمي. وشيئاً فشيئاً، بدأتُ أنسى. كنت أفكّر في ابنتي كلّ يوم. وكلّ يوم كنت أتمرّن على ألاّ أفكّر فيها.

لم أتمكّن قطّ من الخروج إلى الشارع مرة أخرى دون أن أشعر بخجل عميق.

اليوم، انتهى ذلك الأمر. أخرج إلى الشارع ولا أشعر بأيّ خجل. كما لا أشعر بالخوف. أخرج إلى الشارع فتحييني البائعات في السوق. ويبتسمن لي كما لو كنّ من أقرب أقربائي.

الأطفال يلعبون معي، يمدّون لي أياديهم. لست أدري ألأنني طاعنة في السنّ أم لأنني طفلة مثلهم.

مكتبة
t.me/t_pdf

كلماتٌ أخيرة

أكتب وأنا أتحسّس الحروف. إنّها تجربة غريبة؛ لأنني لا أستطيع قراءة ما أكتب. إذن، أنا لا أكتبُ لنفسي.

لمن أكتبُ، إذن؟

أكتبُ لتلك التي كُنتُها. ربّما تلك التي تركتُها في يوم من الأيام ستبقى واقفة، جامدة وكئيبة، في زاوية من زوايا الزمن- في منعطف، عند ملتقى من ملتقيات الطرق- وتستطيع بطريقة غامضة أن تقرأ هذه السطور التي أخطّها هنا، دون أن تراها.

لودو، عزيزتي: إنّني سعيدة الآن.

على العمى، أنا أرى أحسن منكِ. أبكي بسبب عماكِ، بسبب غبائك اللامتناهي. كان من السهل أن تفتحي الباب، وكان من السهل أن تخرجي إلى الشارع وتعانقي الحياة. أراك تراقبين من النافذة، مرعوبة، كما لو كنت طفلاً ينحني على حافّة السرير، وهو يتوقع اكتشاف وحوش مخيفة.

وحوش مخيفة، أريني الوحوش المخيفة: هؤلاء الناس في الشارع.

إنّهم أهلي وأقاربي.

أنا آسفة على كلّ ما فقدتِه.

آسفة أيّما أسف.

لكنّ الإنسانية التعيسة، أليست شبيهتك؟

كلّ شيء يبدأ في الأحلام، بالفعل

في حلمها، كانت لودو طفلة صغيرة تجلس في شاطئ ذي رمال بيضاء. وكان سابالو مستلقياً على ظهره ورأسه على ركبتيها، ينظر إلى البحر. كانا يتحدّثان عن الماضي والمستقبل. يتبادلان الذكريات. يضحكان من الطريقة الغريبة التي التقيا بها، فتهزّ ضحكاتُهما الهواء، مثل لمعان الطير في الصباح الناعس. حينئذ، نهض سابالو:

ها قد طلع النهار، يا لودو. هيا بنا.

ثم سارا معاً باتجاه الضوء، يضحكان ويتحدّثان، كمن يلج سفينة.

لشبونة، 5 فبراير 2012.

تشكّرات وبيبليوغرافيا

ذات عشية بعيدة من سنة 2004، طرح عليّ المخرج السينمائي جورج أنْطونيو تحدّياً يتمثّل في كتابة سيناريو لفيلم تخييلي قد يُصوّر في أنغولا. فحكيتُ له قصة امرأة برتغالية حبست نفسها بين أربعة أسوار سنة 1975، بضعة أيام قبل الاستقلال، بعد أن أرعبها تطوّر الأحداث. فدفعني حماسة جورج إلى كتابة السيناريو. وعلى أنّ الفيلم بقي في منتصف الطريق، فقد كانت تلك البنيةُ الأولى هي النقطة التي انطلقت منها للوصول إلى هذه الرواية. ولكتابة الفصول الخاصّة بالكوفالي، استلهمتُ الكثير من أشعار روي دوارتي دي كارفايو، واستفدت بوجه خاصّ من واحدة من ألمع دراساته: **إشعار للملاّحين. نظرة موجزة وأولية حول رعاة كوفالي**.

هناك عدة أشخاص ساعدوني في تأليف هذا الكتاب. أودّ أن أشكر على وجه الخصوص والديّ، وهما قارئايَ الأوّلان منذ زمان، كما أشكر باتْريسيا ريِيْشْ ولارا لونْغلي. وفي الأخير، أتقدّم بالشكر للشاعرة البرازيلية كريستيانا نوفووا، التي وضعت، بطلب منّي، أشعار لودو في الفصلَين اللذين يحملان عنواني «هايكو» و «تعويذة».

جوزيه أغوالوسا

نظرية عامة للنسيان

تروي (نظرية عامة للنسيان) القصة الحقيقية للودو، المرأة البرتغالية التي روعتها الأحداث المتصاعدة في حرب الاستقلال الأنغولية في عام 1975، فتحبس نفسها في شقتها في لواندا لما يقرب من ثلاثين عامًا. يربط أغوالوسا بين حكاية لودو والقصص المؤثرة لشخصيات أخرى ويصوغها بسخرية دقيقة تُبرز العجائب العرضية للحياة، فيخلق أغوالوسا من ذلك منجزًا مُقنعًا وساحرًا. (المترجم)

- التجرد السلس ومقروئية لويس دو برنييرز في أفضل حالاته، مقترنة بالملاحظات الثاقبة لجون ماكسويل كوتزي... كتابة أغوالوسا هي متعة دائماً. (سكوتسمان)

- إن كان صحيحًا أن الرجل الذي يمتلك قصة جيدة هو مَلكٌ عمليًا، فحينئذٍ يمكن لأغوالوسا أن يعدّ نفسه من الأسرة الملكية الجديدة في القارة. إلى جانب ميا كوتو الموزمبيقي، أصبح أغوالوسا بالفعل واحدًا من أكثر الأصوات تميزًا في إفريقيا الناطقة بالبرتغالية. (فايننشال تايمز)

- كتاب يخطف القارئ من الصفحة الأولى. (جيه إل)

مكتبة ٧١٥

ISBN
9 789921 712216

telegram @t_pdf

دار الخان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

@DarAlkhan_kw Info@daralkhan.com